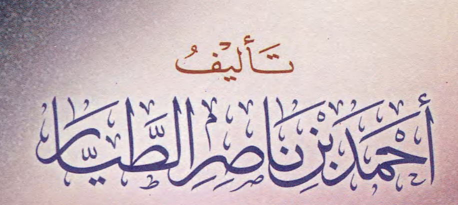
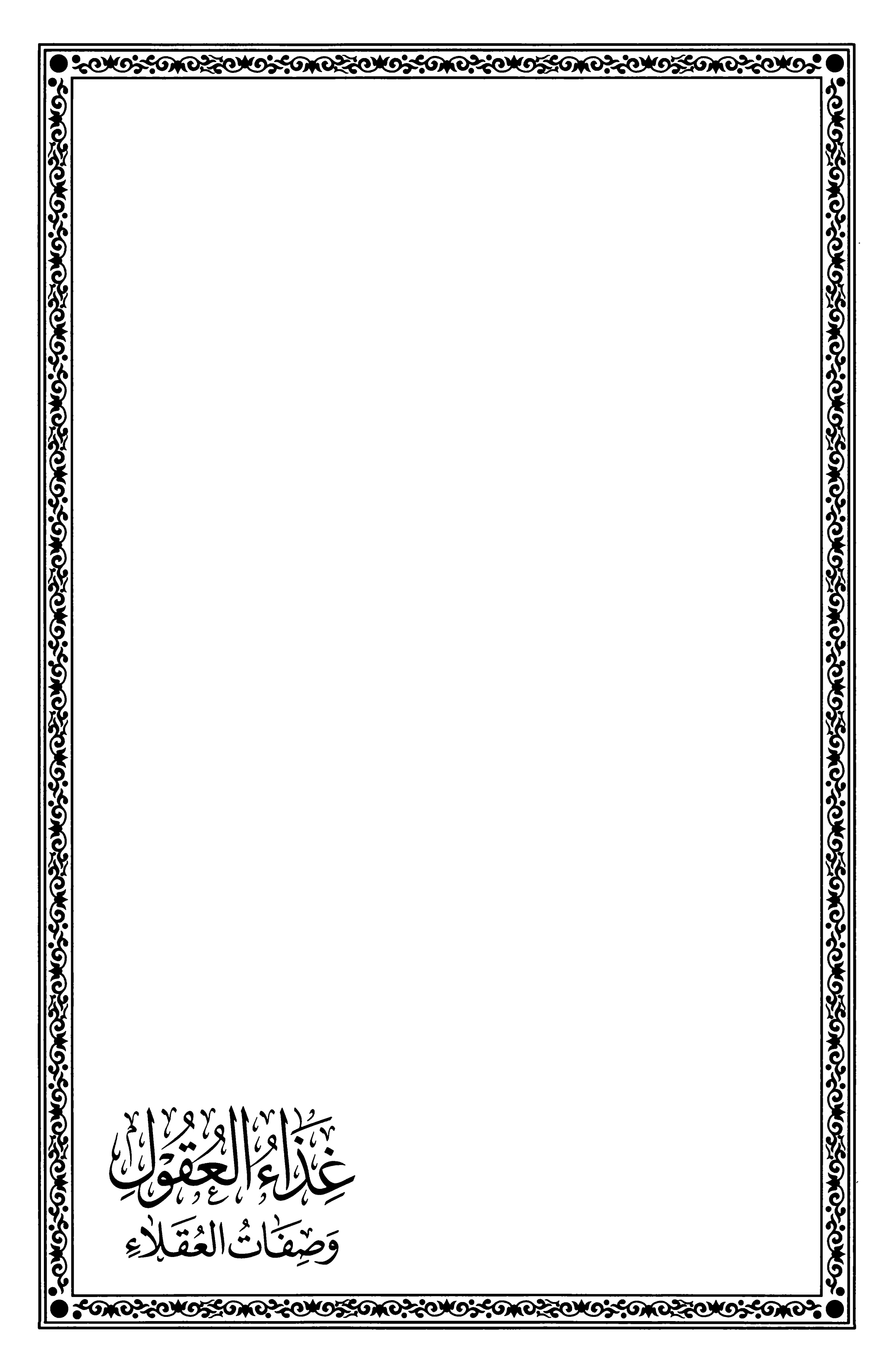
غذاء العقول

وصفات العقلاء

تأليف






غذاء العقول
وصفات العقلاء



عنوان المصنف: غذاء العقول وصفات العقلاء

تأليف: أحمد بن ناصر الطيار

رقم الإيداع: ٢٩٣٣٥/ ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ٤-٠٧٨-٨٠٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى

(١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م)



للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شرق النفق

الإدارة والمبيعات جوال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦٥٦١١٥٠٠٥٨ - ٠٠٢٠١١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣

الإسكندرية - ١٧٥ ش طيبة سبورتنج بجوار مسجد الصديق هاتف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥١

القاهرة - ٦ ش الدرسة متفرع من ش البيطار - خلف الجامع الأزهر الشريف - هاتف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢

جوال: ٠١١١٦٨٣٣٥٥٠ - ٠٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - فاكس: ٠٣٤٣٨١٥٠٩

البريد الإلكتروني: d.alhijaz@gmail.com

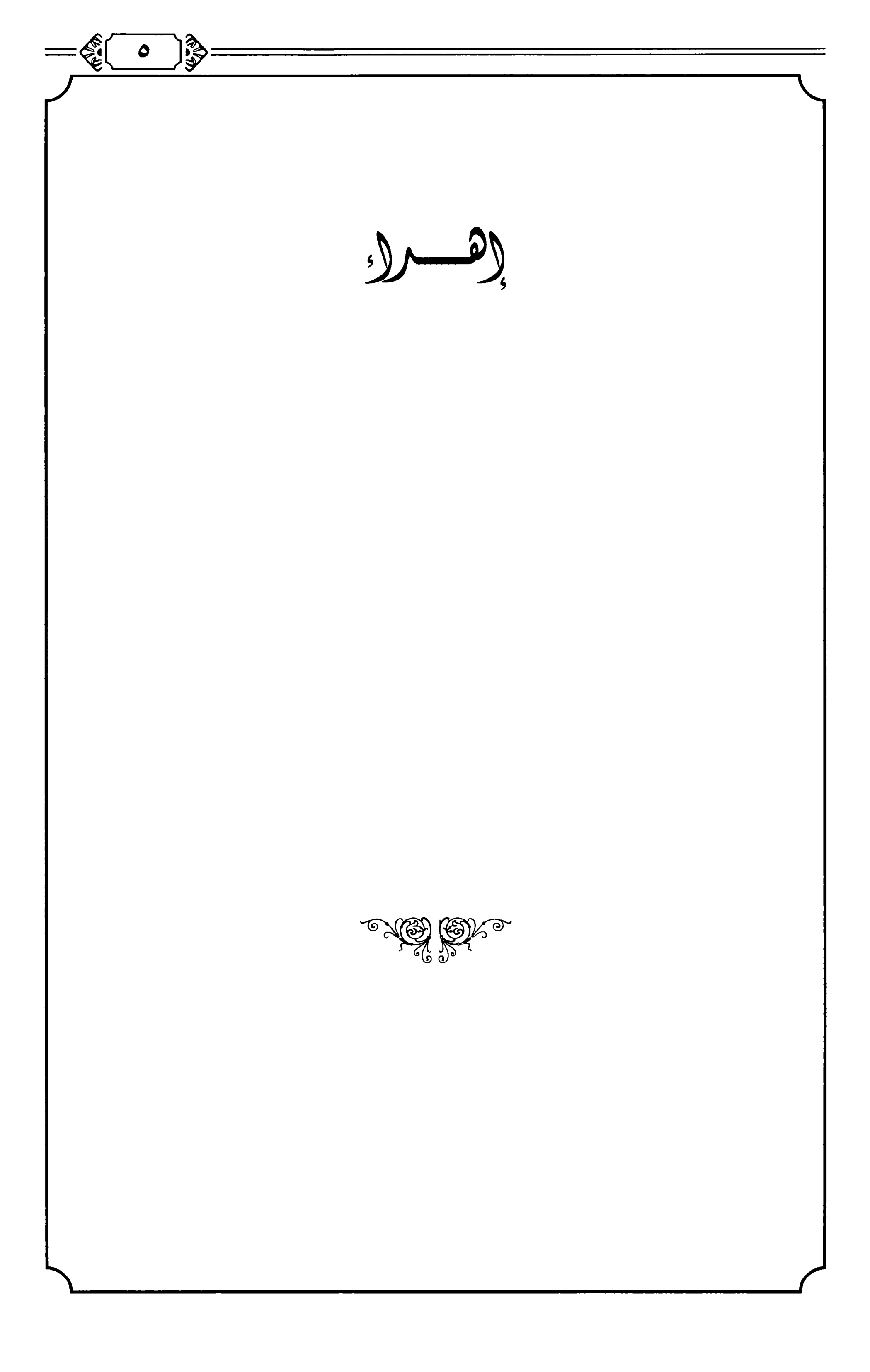
غذاء العقول
وصفات العقلاء

تأليف

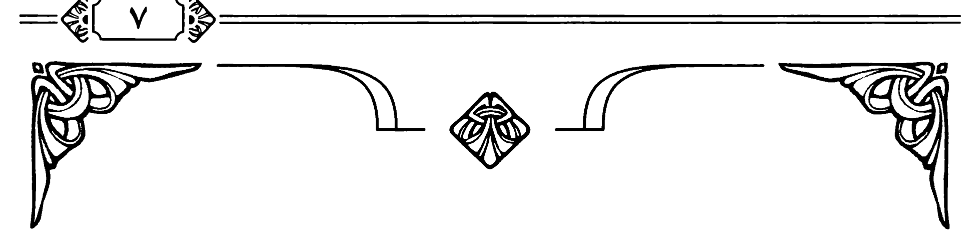





بسم الله الرحمن الرحيم



إهـــداء



[المقدمة]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنّ الحديث عن العقل والعقلاء حديثٌ تتوق النفوس إليه، وتتطاول الأعناق للحديث عنه، وتشتدُّ الحاجة له في كل زمان ومكان؛ فالإنسان إنما هو بعقله، والعاقل هو مَن أحسن استخدام عقله الذي هو من أعظم هبات الله تعالى وعطاياه ومِنَحه.

وسترى ـ بمشيئة الله تعالى ـ أنّ القدرة على امتلاك زمام العقل هي مهارةٌ صعبة ومعقّدة ولكنها ممكنةُ الحصول، وأنّ الأشخاص الناجحين الفائزين هم الذين استطاعوا السيطرة على أدمغتهم وقلوبهم، وأحسنوا التعامل معها، واستخدموها بحيث تخدم أغراضهم الشريفة.

وهذا يتطلّب جهدًا وصبرًا، «ومعظم الكمالات صعبة على النفس؛ لأنها ترجع إلى تهذيب النفس والارتقاء بها عن حضيض الحيوانية؛ لأنها إما مدْعوَّة لداعي الشهوة أو داعي الغضب، فالاسترسال في اتباعها وقوع في الرذائل في الغالب»(١)

ولقد كان هذا الموضوع من أعظم الموضوعات التي اعتنيت بها، وحرصت على قراءة كثير من الكتب التي تتحدث عنها، منذ أكثر من

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٢٤٤).

عشر سنين، وكنت خلالها أدوّن في مذكّرتي ما يخطر لي حول هذا الموضوع الهامّ، وأُكثر من التأمل في حال العقلاء، وأخلاقهم وطباعهم، وحسن تعاملاتهم وتصرفاتهم، التي دَلَّتْهم عليها عقولهم، وكثير منهم لم يكن من أهل العلم والمعرفة والقراءة، فأيقنت أنّها ليست من كسبهم، بل هبةٌ من الله لهم، حيث أعطاهم عقولًا ناضجة، وفهومًا حسنة، قادتهم ودلّتهم إلى اختيارها والعمل بها، ومع الدربة والمران اكتسبوا مزيدًا من العقل.

وصاحبْت كثيرًا منهم، وحرصت على صحبتهم والنظر في أخلاقهم وحسن آرائهم وطباعهم، وقارنت بينهم وبين بعض الذين انشغلوا بالعلم والمطالعة، وأمضوا سنوات فيها، فرأيت أنّ هؤلاء العقلاء أحسن وأفضل تعاملًا، وأدبًا، وسمتًا، وأخلاقًا، وطباعًا، وآراءً، وأحسن عشرة، وأقلّ أخطاءً من كثير من هؤلاء المنشغلين بالعلم والمطالعة، الذين لم تكن لهم عناية في تحسين أخلاقهم وطباعهم، ونضج عقولهم، بل انصبّ اهتمامهم على العلم والكتب حفظًا ومطالعة.

فأيقنت أنّ العناية بالعقل من أهمّ المهمّات لكل إنسان، فضلًا عن طالب العلم، الذي هو في الأصل قدوةٌ للناس ومحطّ أنظارهم، وأما حفظ العقل من النقص والفساد فمن الضرورات الخمس التي اتفقت شرائع الأنبياء على حفظها.

وجعلت أتلمّح خصالهم، وأدقق في أخلاقهم، وأتأمل في صفاتهم، التي دوّنتها في مذكرتي على مدى عشر سنوات تقريبًا، في أزمنةٍ متقطّعة، حسب ما يمرّ بي من موقف أو حَدَث، ثم عزمت على التفرّغ لجمعها في كتاب، وصفّها وتنقيحها، وكدّ الذاكرة في تذكر كلّ ما يتعلّق بهذا الموضوع الشائق الضروري.

أسأل الله تعالى أن ينفع به، ويبارك فيه، إنه سميعٌ قريب مجيب.

أحمد بن ناصر الطيار

خطيب جامع/

عبد الله بن نوفل بالزلفي

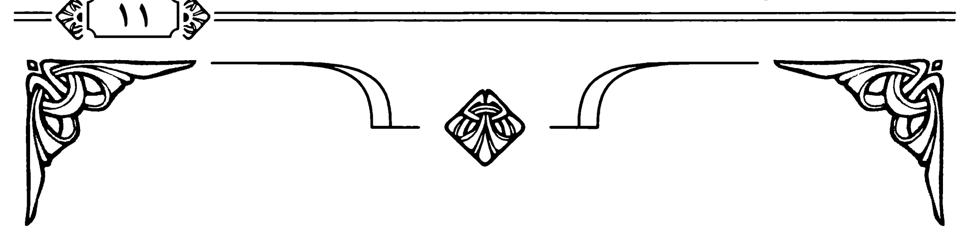
والداعي إلى الله في وزارة الشؤون الإسلامية

البريد الإلكتروني:

ahmed0411@gmail.com

رقم الجوال: ٠٥٠٣٤٢١٨٦٦





[معنى العقل لغة واصطلاحًا]

* **العقل في اللغة**: ضبط الشيء وحبسه؛ لِأَنَّه يعقل صاحبه عن الْجهل، وإذا دعاه طبعه إلى فعل قبيح كان عقلُه مانعًا له من الإقدام عليه، ومنه قيل للحبل الذي يُشدّ به ذراعُ البعير عقال؛ لأنه يعقله ويحبسه عن الحركة، ومنه قيل للذي يوضع على الرأس عقال؛ لأنّه يمنع ما تحته عن السّقوط والاضطراب.

ووجه تسمية العقل بهذا الاسم: كونه يمنع صاحبه عن سفاسف الأمور وأخطارِها، ويحبسه عن ذميم القول والفعل.

وليس المقصود بالعقل ما تُدرك به الأشياء فحسب، وإلا لكانت البهائم من أعقل الكائنات؛ لأن كثيرًا منها ترى في الليل بوضوح، وتَمْتَلِكُ حواسًّا أقوى مِن حواسِّ البشر.

ولا الذي تُحصّل به المال، وإلا لكان قارون أعقل الناس!

ولا الذي تتسلّط به على غيرك، فيكون تحت سلطتك، ويخاف منك، وإلا لكان فرعون أعقل العقلاء!

فما هو العقل إذن؟

هو الذي تعقل به المقصود الذي خُلقت لأجله، وهو عبادة الله تعالى، والعبادة ليست قاصرة على صلاة وصيام وزكاة، بل هي أعم، فحسن تعاملك وأخلاقك وأدبك مع غيرك من أجلّ وأعظم العبادات إذا قصدت بها وجه الله، فهي أثقل ما يُوضع في الميزان، وتُدرك بحسن خلقك درجة الصائم القائم.

فالإخلال في جانب التعامل والأخلاق ضعف في الدين، ونقص في العقل.

وحينما ذكر الله تعالى بعض آياته الكونية الدالة على وحدانيته وعظمته وتفرّده بالخلق والرزق قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]؛ أي: إن في الذي ذكرت لآيات لأولي النهى، أي: لذوي العقول، والنُّهى جمع نُهْيَةٌ، «سُمّيت نُهْيَةٌ؛ لأنها تنهى صاحبها عن القبائح والمعاصي»[(١)]

«وقال بعضهم: ذو النُّهْيَةِ الذي ينتهي إلى رأيه وعقله»[(٢)]

فالعاقل هو الذي ينهاه عقلُه عن كلّ قبيح ومعصية، ويرجع إلى عقله في أموره وشؤونه، دون هواه وشهوته وعاطفته.

فمن حبس نفسه ومَلَكها واستطاع السيطرة عليها في مواطن ثلاثة فهو العاقل حقًّا:

* **الموطن الأول: عند الشهوة،** حيث يمنعها ما تشتهي وتحبّ إذا كان في ذلك ضرر عليه في دينه أو دنياه.

* **الموطن الثاني: عند الغضب،** حيث يمنعها من الانتقام لنفسه، ويكظم غيظه، إلا إذا كان في سبيل الله والدفاع عن دينه وشرعه، فالغضب لله محمود.

* **الموطن الثالث: عند المصائب،** حيث يمنعها عن الجزع والتَّسَخُّط.

ويقلّ عقله بقدر ضعفه عن حبس نفسه عن بعضها.

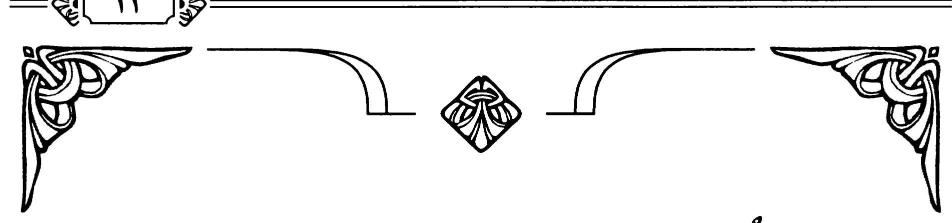
أما من لم يملك نفسه في هذه المواطن الثلاثة كلّها فليس عاقلًا، ولو كان صاحب منصب أو مال.

فاحرص على الصبر في هذه المواطن، وكبح جماح نفسك، وسيكون الأمر شاقًّا عليك في البداية، وستتكلّف في ذلك، ولكن بعد ذلك سيهون عليك الأمر بمشيئة الله تعالى.

---

(١) تفسير البغوي (٣/ ٢٦٥).

(٢) تاج العروس (٤٠/ ١٥٢).



[الفرقُ بين العقل والوقار والحزم والدّهاء، وبيانُ أنّ العقل أكملها]

العقل: هو استعمال الطاعات والفضائل واجتناب المعاصي والرذائل، وقد نص الله تعالى في غير موضع من كتابه على أنّ من عصاه لا يعقل، قال الله تعالى حاكياً عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، ثم قال تعالى مصدقا لهم: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وعكس العقل الحمق، وهو استعمال المعاصي والرذائل.

وأما التعدي وقذف الحجارة والتخليط في القول فإنما هو جنون.

والسُّخف: هو خُلُق بين العقل والحمق،وهو العمل والقول بما لا حاجةَ إليه في دينٍ ولا دنيا، ولا يُحْمد في خلقٍ مما ليس معصيةً ولا طاعة، ولا عَوناً عليهما، ولكنه من هَذَر القول وفضول العمل، الذي لا يجني صاحبه سوى تضييع وقتِه الذي هو أغْلى ما يملك.

والدّهاء: هو إحكام أمرِ الدنيا، والتودُّد إلى الناس بما وافقهم، وصلحت عليه حال المتودِّد، والتحيُّل في إنماء المال وكسبِ الشّهرة والجاه بكل ما أمكن من معصية ورذيلة، ويُسمّى ذكاءً.

والحزم: هو أن يضبط الإنسان أمر نفسه وماله ومن له وِلاية عليه.

والوقار: هو حسن السَّمْت من خفض الصوت وعدم الالتفات

وغض البصر، ويُسمى الرزانة، وهو ضد السخف[١]

وهذه أخلاق عظيمة، وطباع كريمة، ولكنها لا ترتقي إلى مرتبة العقل، ولقد كان الذين صدَّقهم الله تعالى في أنهم لا يعقلون، وأخبرنا بأنهم لا يعقلون: سائسين لدنياهم، مثمِّرين لأموالهم، مُدارين لملوكهم، عالمين بشؤون حياتهم.

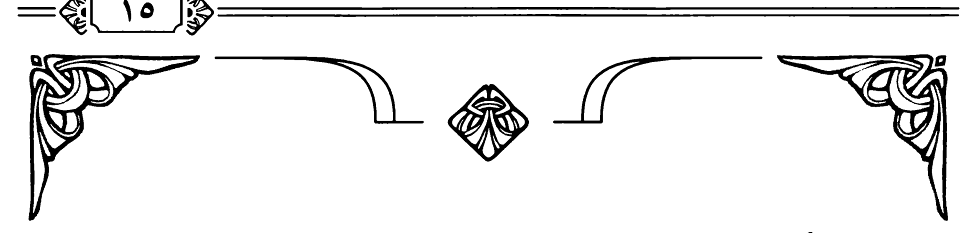
فلا يُسمّى أحدٌ عاقلًا مهما بلغ من الذكاء والدهاء والحزم والفهم والوقار إلا إذا كان ساعيًا إلى تحصيل الطاعات التي تقرّبه إلى ربّه، وإلى الفضائل والمكارم التي تجمّله بين الناس يبتغي بها وجه الله تعالى.

وهل يكون عاقلاً من سعى في عِمارةِ دنياه، وأهمل دينه الذي ما خلقه الله إلا لأجله، ونسي آخرته التي عن قليل سيرحل إليها، كما رحل مَن سبقه، وسيرحل من عاش بعده؟



---

(١) يُنظر: الأخلاق والسير لابن حزم (ص٧٤ ـ ٧٦).



[أقسام الناس في تعاملهم مع عقولهم]

انقسم الناس في تعاملهم مع عقولهم إلى أقسام أربعة:

*** القسم الأول: من استعمله فيما خُلق له وفيما ينفعه في دينه ودنياه.**

وهذا هو العاقل حقًّا، حيث استعمل عقله في جلبِ ما ينفعه في دينه ودنياه، فعمل وجدّ، وترك الكسل والخمول، وطلب معالي الأمور.

*** القسم الثاني: من استعمله فيما لم يخلق له، وفيما يضره في دينه ودنياه.**

كحال كثير من الأذكياء، الذين استعملوا عقولهم في نيل شهواتهم، وإشباع رغباتهم، فهؤلاء أوتوا ذكاء ولم يؤتوا زكاء، وأوتوا فهما ولم يؤتوا عقلا، كابن سيناء، والرِّيوَنْدِيّ، الذي قال عنه الذهبي ـ بعد أن ذكر ما قيل في ذكائه ـ: «لعنَ اللهُ الذَّكاءَ بلا إيمانٍ، ورضيَ اللهُ عن البلادَةِ مع التَّقْوى».

لأن من لم يستعمل عقله فيما ينفعه: فقد ساوى من لا عقله له، بل هو أردأ منه، لأنه غير معذور، وسيحاسب على ذلك.

*** القسم الثالث: من عطله وأهمله.**

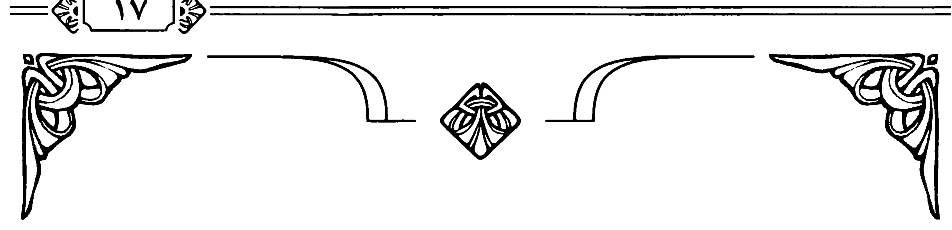
كحال الكفار والفجار، الذين سيندمون يوم القيامة على عدم استعمالهم لعقولهم.

وكحال الجهال، الذي لم يستعملوا عقولهم في تحسين أخلاقهم وطباعهم.

فالعاقل هو من استعمل عقله فيما ينجيه من عذاب الله، باتباع الحق، والبحث عنه، وكلّ من انشغل عن آخرته بهذه الدنيا الفانية، بجمع الأموال، أو البحث عن المناصب، أو اتباع شهواته وهواه: فلا يُعدّ من العقلاء، وقد حكى الله تعالى إقرار الكفار بذلك يوم القيامة بقوله عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دل هذا على أن الكافر لم يعط من العقل شيئا».

* **القسم الرابع: من سعى في تدميره وإفساده**، بجنايته على نفسه بتناول المخدرات والمسكرات.





[أعظم اللذات: اللذة العقلية]

لذَّاتُ الدُّنيا كلّها محصورةٌ في لذّاتٍ ثلاثة:

* **اللذة الأولى: اللذة الجسديّة الحسيّة**، وهي التي يتلذّذ بها الإنسان في بدنِه، كلذَّة الأكل والشرب واللعب، وهذه اللذة يشترك فيها الإنسان والحيوانُ البهيم.

ولو كانت كمالًا: لكان أفضل الناس وأشرفهم وأكملهم: أكثرهم أكلًا وشربًا ولعبًا.

* **اللذة الثانية: اللذة الوهميّة الخياليّة**؛ كلذَّة الرئاسة والمنصب والسيطرة والتعاظم على الخلق والفخر وغيره، التي يظنّ صاحبها أنّها لذّةٌ حقيقيّة، وإنما هي وهميّة مُؤقّتة سرعان ما تزول، لأنّه ارتفع بغيره؛ من منصبٍ وشهادةٍ ومالٍ، ولم يرتفع بنفسه وأخلاقه وعلمِه وجمال أفعالِه.

وإذا ذهب منصبُه أو مالُه: ذهبت مكانتُه وإقبال الناس إليه.

وهذه اللذة وإن كانت أشرفَ من الأولى، إلا أنَّ آلامَها ومفاسدها ومضارّها أشدُّ وأكثرُ وأعظمُ مِن التلذُّذ بها؛ لأنّ صاحبها يُعادي كلَّ مَن تعاظم وترأس عليه، ويحسد مَن نافسَه فيها.

* **اللذة الثالثة: اللذة العقلية الرُّوحانية**، وهي التي يتلذّذ بها الإنسان في عقلِه وروحِه وقلبِه؛ كلذَّة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكرم والجود والعطاء والشجاعة والصبر والمروءة وغيرها.

فإذا انضمتِ اللذَّة بذلك إلى لذَّةِ معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لا شريك له: فصاحب هذه اللذَّة في جنةٍ عاجلةٍ، نسبتُها إلى لذَّات

الدنيا كنسبة لذَّة الجنة إلى لذَّة الدنيا، فإنه ليس للقلب والروح ألذُّ ولا أطيبُ ولا أحلى ولا أنْعمُ من محبةِ الله، والإقبالِ عليه، وعبادتِه وحده، وقرّةِ العين به، والأنسِ بقربه، والشوقِ إلى لقائه ورؤيته.

وإنَّ مثقال ذرة من هذه اللذة لا يُعْدل بأمثال الجبال من لذَّات الدنيا، ولذلك كان مثقالُ ذرةٍ من إيمانٍ بالله ورسوله يُخَلِّص من الخلود في دار الآلام، فكيف بالإيمان الذي يمنع دخولها؟!(١)

وهذه اللذّة لا مضرّة منها أبدًا، وأثارُها المحمودةُ مضمونةٌ في الدنيا والآخرة، بخلاف اللذّة الجسديّة والوهميّة، فمضارّها أكيدة، وأثارُها المحمودةُ غير مضمونةٍ، وكم من إنسان تلذّذ بأكلٍ فكان فيه حتفُه أو مرضُه، كالسمنة والأمراض الباطنيّة مثلا، وكم من إنسان تلذّذ حينما تولّى منصبًا أو ربح مالًا فكان فيه حتفُه وآلامُه.

وهؤلاء لا يطيب لهم عيش مهما تمتّعوا بمتع الدنيا، فهم أكثر الناس ضيقًا وخصامًا ونكدًا، ومَن صلح عيشُه وبالُه منهم فلأنه أخذ حظًّا من اللذة العقلية الرُّوحانية.

والمروءةُ والدِّينُ والعقلُ يَنْهى عن لذَّةٍ تُسبّبُ ألَمًا، وشهوةٍ تُورث ندمًا.

فعليك باللذّة الحقيقية، التي لا تُفارق صاحبها حيًّا ولا ميّتًا.

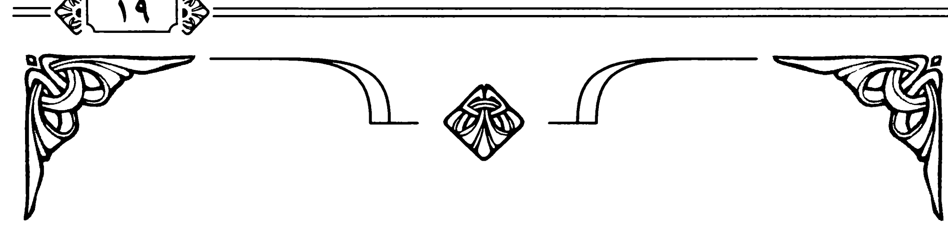
وصدق الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ﴾ [النّحل: ٣٠]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النّحل: ٩٧].

«فَضَمِنَ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ الْجَزَاءَ فِي الدُّنْيَا بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ، وَالْحُسْنَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَهُمْ أَطْيَبُ الْحَيَاتَيْنِ، فَهُمْ أَحْيَاءٌ فِي الدَّارَيْنِ»(٢)

---

(١) روضة المحبين بتصرف (ص١٧٩ ـ ١٨١).

(٢) الجواب الكافي لابن القيم (ص١٢٠).



[مكانة العقل في الإسلام]

إنّ العقل:

ـ هو الفارق بين الإنس والجن وبين جميع ما على ظهر الأرض من كائنات حيّة..

ـ وهو محلّ الإدراك والفهم والتفكير والنظر والتأمل والاعتبار..

ـ وهو السبيل الوحيد لمعرفة الصواب من الخطأ، والحق من الباطل..

ـ وهو محرِّك النفس، وسائقها، وموجهها، وكابح جماحها، ومنير طريقها..

فالعقل الذي به يعرف الإنسان الخير من الشر من أعظم نعم الله وعطاياه.

ولذلك جاء ذكره في القرآن الكريمِ في آيات كثيرة، بلفظ العقل، وبألفاظ تؤول إليه، كالتفكر، والنظر، والاعتبار.. في عشرات بل مئات الآيات.

فلو قرأت القرآن الكريم سترى هذه العبارات: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النُّور: ٦١]، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرُّوم: ٢١]، ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعَام: ٩٨] تتكرر عشرات المرات، وجعل حَجْبَ العقلِ أكبرَ مانعٍ وصادٍّ عن قبولِ الحق، كلّ هذا يؤكد ما للعقل من منزلة كبرى في الإسلام.

وقد جعل الله سبحانه العقل وسيلة لمعرفته وعبادته.

وقد وردت مادة العقل في القرآن الكريم في تسع وخمسين موضعًا كلها يفيد أن انتفاء العقل مذمة، هذا سوى ذكرِ مرادفاته: كالألباب، والأحلام، والحِجْر، وذكرِ أعماله: كالتفكر والتذكر والتدبر والاعتبار والفقه والعلم، فهذه الأعمال العقلية لا تكاد تخلو من ذكرها سورة من كتاب الله تعالى، ويرد ذكرها على أنها أوصاف مدح وكمال للمتصف بها، وأن انتفاءها أو نقصانها مذمة شرعية، وهذا يدل دون شك على رفع الإسلام من شأن العقل، وتكريمه له واحتفائه به، كيف لا وقد جعله مناطًا للتكليف وشرطًا لقيام الحجة.

وقد اعتنى الإسلام بالعقل؛ فأمر الله تعالى بالمحافظة عليه، ونهى عن كل ما يضر به، أو يعطل عمله.

فحرم ﷻ المسكرات والمخدرات؛ لِمَا تُسببه من تدميره وتعطيلِه.

ونهى أنْ يُعطل الإنسان عقله لأي سبب كان، ولذلك ذمّ الذين أهملوا عقولهم اتّباعًا لِما عليه آباؤهم وأجدادُهم، ونهى عن التقليد للشيوخ والرؤساء والآباء؛ لأنّ المقلد يُعطل عقله ويُعطي زمامه لغيره، ومن شاهد تقليد عوام كثير من أهل البدع والمذاهب والأديان لشيوخهم وعلمائهم عرف قدر العقل ومكانته، فهم يتلقفون منهم ترهاتٍ وخرافات لو عُرضت على البهائم لضحكت منها.

ولقد جعل الإسلام الدية كاملةً في حق من ضرب آخر فأذهب عقله.

وقد حكى ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ الإجماع عليه، وقال: لأنّ العقل أكبر المعاني وأعظم الحواس نفعًا؛ فإن به يَتميَّز من البهيمة، ويَعْرِف به حقائق المعلومات، ويَهتدي إلى مصالحه، ويتقي ما يضره، ويدخل به في التكليف. وهو شرط في ثبوت الولايات، وصحة التصرفات، وأداء

العبادات، فكان بإيجاب الدية أحق من بقية الحواس. اهـ[١]

فأي تكريم أعظم من هذا التكريم!!

وليس ثمة كتاب خاطب العقل وغالَى بقيمته وكرامته كالقرآن الكريم.

والعقل أفضلُ ما أوتي العبدُ بعدَ الإيمان. كما قال السلف الصالح[٢]

بل قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأفضل مواهب الله لعباده العقل.

ولقد أحسن الذي يقول:

وأفضل قَسْم الله للمرء عقله   فليس من الخيرات شيء يقاربه
إذا أكمل الرحمٰن للمرء عقله   فقد كملت أخلاقه ومآربه
يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه   على العقل يجري علمه وتجاربه
يزيد الفتى في الناس جودة عقله   وإن كان محظورا عَلَيْهِ مكاسبه

ولو صُوّر العقل صورة لأظلمت معه الشمس لنوره»[٣]

وذلك لأنّ العقل يسوق صاحبه إلى كل خير ونفع وصلاح عاجل وآجل، ويدله على كل خلق كريم، ويُنفره من كل خلق ذميم.

والعاقل إذا تعامل مع الناس خضعوا له وقارًا، واحترموه وأحبوه اضطرارًا، وإذا تحدث إليهم حدّقت به عيونهم، وأصغت إليه آذانهم.

وإذا سكت تشوّفوا لحديثه، وإذا نطق ودّوا ألا يقطع كلامه.

وإذا أبدى رأيًا كان له وقعٌ في نفوسهم، وإذا انتقد كان محلّ قبول وإجلال وعناية.

---

(١) المغني (٩/ ٦٣٤).
(٢) صفة الصفوة (٣/ ١٥٩)، موسوعة ابن أبي الدنيا (٦/ ٤٦٧).
(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص١٧، ١٩).

وكلّ فضيلةٍ وسَطٌ بين طَرَفي الإفراط والتفريط، وكلا الطرفين مذموم، فمن زاد أو نقص فيها كان مذمومًا، إلا العقل، فإنه لا إفراط فيه، ومن زاد فيه كان محمودًا.

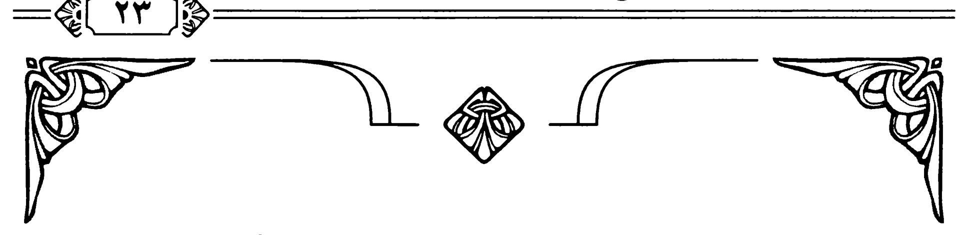
فالزيادة في الكرم تبذير وإسراف، والزيادة في التواضع ذلّ ومهانة، والزيادة في الحياء عجز وخوَر، والزيادة في الأناة والرفق تفريطٌ وإضاعة، والزيادة في العزة التي وهبها الله للمؤمنين كِبر، والزيادة في الشجاعة تهوُّر وإقدام غير محمود، والزيادة في الرحمة ضعفُ قلبٍ وجُبْن نفس، والزيادةُ في الدِّين غلوّ وتنطّع.

وأما الزيادةُ في العقل فحِكْمةٌ ونبلٌ وكمالٌ في الأخلاق والأدب والدِّين والرأي والتفكير.

وكلّ فضيلةٍ نقصت أو عُدمت عند أحدٍ شعر بنقصها أو عَدَمها، إلا العقل، فكلما نقص توهَّم صاحبه أنه أوْفر الناس عقلاً، وأكمل تمييزًا، ولا يعرض هذا في سائر الفضائل، فإنّ من فقدها يشعر ويُحسّ بفقدها، إلا العقل، فإنّ صاحبه لا يُحسّ بفقده ولا بنقصه، حتى إنك تجد المجنون والسكران يسخران بالصحيح، والجاهل الناقص يهزأ بالحكماء وأفاضل العلماء، والصبيان الصغار يتهكّمون بالكهول، والسفهاء العيارين يستخفون بالعقلاء، وضعفة النساء يستنقصن عقولَ أكابر الرجال وآراءهم[(١)].



(١) يُنظر: الأخلاق والسير لابن حزم (ص٩٥ ـ ٩٦).



[مكانة العقل عند السلف الصالح وأهل العلم]

لقد أكْثَر سلفنا الصالح من مدح العقل وبيان شرفه ومكانته وعلوّ كعْبِه، وإليك شيئًا من ذلك:

حينما عزم أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على جمع القرآن وكتابته: اختار زيد بْنَ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهذه المهمة وبيَّن السبب في اخياره بقوله: «إنك رجل شاب عاقل، لا نتهمك، قد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه»(١)

فجعل من أسباب اختياره له لهذه المهمة العظيمة الخطيرة كونه عاقلًا.

وسُئل ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: ما خيرُ ما أعطي الإنسان؟ قال: غريزة عقل.

وقيل للضحاك بن مزاحم رَحِمَهُ اللَّهُ: ما أعبدَ فلانًا وأوْرَعه وأقْرأه! قال: كيف عقله؟ فقيل له: نذكر لك عبادته وورعه وقراءته وتقول عقله؟ قال: ويحك إن الأحمق يصيب بحمقه ما لا يصيب الفاجر بفجوره.

وقال ابن جريج رَحِمَهُ اللَّهُ: قِوام المرء عقلُه، ولا دين لمن لا عقل له.

وقال بعض أهل العلم: كلام العاقل وإن كان يسيرًا عظيمٌ.

وقيل لبعض الحكماء: متى يكون الأدبُ شرًّا مِن عدمه؟ قال: إذا كَبُرَ الأدبُ ونقصَ العقلُ.

وكانوا يكرهون أن يزيد مَنطِقُ الرجل على عقله.

---

(١) رواه البخاري (٧١٩١).

ويقال: من لم يكن عقلُه أغلبَ خصال الخير عليه كان حَتْفُه في أغلب خصال الخير عليه.

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تنظروا إلى عقل الرجل في كلامه ولكن انظروا إلى عقله في مخارج أموره(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن أجَلَّ الأشياء موهبة الْعقل؛ فإنَّه الْآلة في تحصيل معرفَة الْإله وبه تضبط الْمصَالح وتلحظ العواقب وتدرك الغوامض وتجمع الفضائل. اهـ(٢).

وقال بعض السلف: الشَّيْطَان لم يكابد شَيْئا أَشد عَلَيْهِ من مُؤمن عَاقل، وَإنه يكابد مائَة جَاهِل فيستجرهم حَتَّى يركب رقابهم فينقادون لَهُ حَيْثُ شَاءَ، ويكابد الْمُؤمن الْعَاقِل فيتصعب عَلَيْهِ حَتَّى لَا ينَال مِنْهُ شَيْئا من حَاجته.

وقال آخر: لَإزالَة الجَبَل صَخْرَة صَخْرة وحجرًا حجرا أيسر على الشَّيطان من مكابدة الْمُؤمن العاقل؛ لِأَنَّه إذا كان مُؤمنا عاقلًا ذا بَصِيرَة فهو أثقل على الشَّيطان من الجبال وأصعب من الحديد، وإنه ليزاوله بِكُل حِيلَة، فإذا لم يقدر أن يستزله قال: يا ويله ما له ولِهذا، لا طاقَة لي بِهذا، ويرفضه ويتحول إلى الجاهل، فيستأسره ويتمكن من قياده، حتَّى يُسلمهُ إلى الفضائح الَّتي يتعجلها في عاجل الدُّنيا.

وإن الرجلَيْن ليستويان في أعمال البر ويكون بينهما كما بين المشرق والمغرب أو أبعد إذا كانَ أحدهما أعقل من الآخر(٣).

وقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لو أن العاقل أصبح وأمسى وله ذنوب

(١) تجد هذه الآثار معزوةً لمصادرها كلها في كتابي: (حياة السلف بين القول والعمل) باب: (ما قيل في العقل والعقلاء) (ص٩٠٢ ـ ٩٠٦).

(٢) الأذكياء (ص٩).

(٣) الأذكياء (ص١٦).

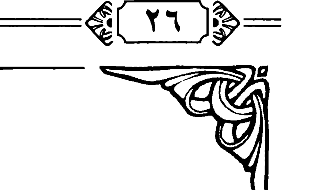
بعدد الرمل كان وشيكا بالنجاة والتخلص منها، ولو أن الجاهل أصبح وأمسى وله من الحسنات وأعمال البر عدد الرمل لكان وشيكا أن لا يسلم له منها مثقال ذرة.

قيل: وكيف ذلك؟ قال: إن العاقل إذا زلّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذي رُزقه، والجاهل بمنزله الذي يبني ويهدم، فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يتم دين الرجل حتى يتم عقله، وما أودع الله امرأً عقلا إلا استنقذه به يوما.

فانظر إلى كثرة ما نُقل عنهم ـ وما لم أذكره أكثر بكثير ـ؛ لتعرف مكانة العقل عند السلف الصالح رحمهم الله تعالى، وأن العناية به من أهمّ المهمات، وأولى الأوليات، وأن الإخلال به يؤدي إلى الإخلال بالدين والخلق والأدب.





[هل العقل في الدماغ أم في القلب؟]

خلاصة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ(١) وبعض أهل الطب في هذه المسألة: أنّ العقل ليس هو الدماغ، وليس جسمًا محسوسًا، بل هو صفةٌ معنويّة، وله تعلّق بالدماغ والقلب.

فالعقل هو التفكير والنظر، ومصدره الدماغ، وقوة الإرادة والعزيمة وضعفهما مصدره القلب.

فمَبْدَأُ الفِكرِ والنَّظَر والتصديق والتكذيب في الدِّماغِ، ومَبدَأُ الإرادَةِ والعزيمة والعمل بالعلم في القلبِ.

فالنظر والخواطر والأفكار التي تُؤدي إلى تصديق الشيء أو تكذيبه إنما هي من الدماغ والمخ، والقلبُ يُصدِّقها أو يكذّبها.

والخوف، والفزع، والحب، والحزن، والفرح، والبغض، والحسد، والحقد، والخَور، والشجاعة، والحِرص، والشَّرَه، والنّفاق، والخشوع، والخضوع، والغِلظة، واللين، والاطمئنان: من أعمال القلوب.

فقد يكون الرجل مصدقًا؛ لأنّ المخ توصل إلى ذلك، لكنه لا يعمل بتصديقه؛ لأنَّ القلب لم يعزم على ذلك.

ولذلك لو اسْتُبدل القلب بقلب آخر أو بقلبٍ صناعيّ لم يُؤثر ذلك على علمه وتصديقه وتصوراته، ولكن يُؤثر ذلك على عزيمته وهمّته وعمله بعلمِه ومُخالفة هواه.

---

(١) يُنظر كلامه في تَقريب فتَاوى ورسائل شَيخِ الإسلامِ ابن تَيمِيّة رَحِمَهُ اللَّهُ (١/ ٧١٧ ـ ٧١٨).

فهناك ارتباط وثيق بين القلب والمخ، والعرب تقول عن الرجل الشجاع: حديد القلب، أو ذكيُّ القلب، ونحوه.

قال عنترة يفخر بشجاعته:

لئن تكُ كفّي ما تُطاوِعُ باعَها ... فلي في وراءِ الكفِّ قلبٌ مُذَرَّبُ

كما أنهم يصفون شدة الذكاء والفطنة في القلب أيضًا،كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

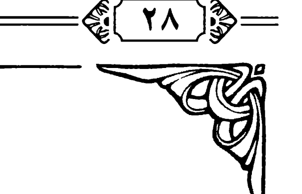
قلبي ذكيٌّ وعَقْلي غَيرُ ذي دَخلٍ ... وفي فَمي صارمٌ كالسَّيفِ مأثور

فالعَقْل ـ الذي يمنع صاحبه من ارتكاب الرذائل ـ في القلب وليس في الدماغ؛ لأن الدماغ مُسْتَودعٌ للحفظ ووِعاءٌ له، وبه يكون التفكير والتأمل والاستنباط، وإرسال الإشارات والتنبيهات عبر الجهاز العصبي إلى سائر الأعضاء، وأما القلب فهو المحرك للعمل.

فإذا كان شخص يعتقد اعتقادات ويرى آراءً معيّنة، ثم نُقِل قلبُه إلى شخص آخر: فلن يحمل قلبُه تلك الاعتقادات والآراء ـ والله أعلم ـ، بل سيكون هذا القلب الجديد متعلّقًا بالدماغ الآخر الذي اتّصل به أيًّا كان، فيبُثّ له الإشارات والتنبيهات عبر النظام العصبي، فيشترك معه في الذاكرة ليبدأ عمله كما خلقه الله. ويكون كعضوٍ من أعضاء الجسد مثل اليد والرجل ونحوها.

فإذا اجتمع في الإنسان التفكير والنظر والرأي السديد، والإرادة والعزيمة على العمل بما رآه: سُمّي عاقلًا رشيدًا، وإن تخلّف أحدهما لم يسمّ عاقلًا.







[الملك ووزيره وجنوده]

الدِّمَاغ: هو الملك في بدن الإنسان، الذي تصدر عنه الآراء والأوامر والتوجيهات.

والقلب: هو وزيره المنفذ لذلك، المتولي بنفسه تطبيقها والعمل بها.

وأعضاؤه؛ كاليدين، والقدمين، والعينين، والأذنين، واللسان، والفرج، هي جنوده وخدمه.

ـ فإنْ كان الملك ذا رأي سديد، وكان الوزير أمينًا قويًّا: خضعت جنوده للملك، وامْتثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، ولم يتحركوا إلا بإشارته، ولم تجترئ الأعداء عليه.

ـ وإنْ كان الوزير أمينًا ضعيفًا: لم تخضع جنوده للملك، ولم يمْتثلوا أمره، ولم يجتنبوا نهيه، وتحركوا بغير إشارته، فعاثت فسادًا، واجترأ الأعداء عليه، فجنوا على الملك وأزاحوه من سلطته، وإن بقيت صورته.

ـ وإنْ كان الوزير خائنًا قويًّا: خضعت جنوده لوزير السوء هذا، ولم يخضعوا للملك، فحرّض الجندَ على التمرد على الملك، وعصيانه وتسفيه آرائه.

ـ وإنْ لم يكن الملك ذا رأي سديد: فلا أمل في صلاح الوزير ولا الجنود، فإن كان الوزير ضعيفًا كان الشرّ قليلا، وإن كان قويًّا كان الشرّ مستطيرًا.

وهكذا حال الدِّمَاغِ والقلب والأعضاء:

فالدِّمَاغ: هو الملك، ومنه يصدر التفكير والنظر والرأي.

والقلب: هو الوزير، ومنه تنبعث الإرادة والعزيمة على العمل بما يصدر من الدِّمَاغِ من رأي ونظر.

والأعضاء: هي الجنود والحرس والخدم للدّماغ والقلب.

- فإنْ كان الإنسان ذا رأي سديد، وذا قلب قوي عازم على العمل برأي الدماغ: خضعت الأعضاء للدماغ، وامْتثلت أمره، واجتنبت نهيه، ولم تتحرك إلا بإشارته، ولم تجترئ شياطين الإنس والجنّ عليه، وقصارى أمرهم إيذاء ظاهره بالقول أو الفعل، ولم يقدروا على ثني عزيمته، وإفساده بالشبهات، وإغرائه بالشهوات.

وهذا هو العاقل، أي: بمجموع العمل الصحيح للدماغ والقلب والأعضاء.

- وإنْ كان ذا قلب ضعيف غير عازم على العمل برأي الدماغ: لم تخضع الأعضاء للدماغ، ولم تمْتثل أمره، ولم تجتنب نهيه، وتحركت بغير إشارته، واجترأت شياطين الإنس والجنّ عليه، وأفسدوه بالشبهات أو الشهوات.

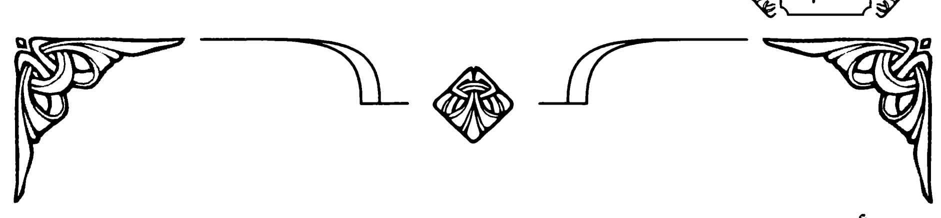
وهذا هو الأحمق الجاهل.

- وإنْ كان ذا قلب قوي لكنه فاسد باتباع الهوى، وعازم على العمل بخلاف رأي الدماغ: خضعت الأعضاء لعزيمة القلب الفاسد، وحرّضها على التمرد على الدماغ، وعصيانه وتسفيه آرائه.

وهذا أشد حمقًا وجهلا، وأعظم فسادًا.

- وإنْ لم يكن الإنسان ذا رأي سديد: فلا أمل في صلاح القلب ولا الأعضاء، وفسد الإنسان فسادًا كبيرًا، فإن كان قلبه ضعيفًا كان شرّه قليلا، وإن كان قويًّا كان شرّه مستطيرًا.

وهذا أشرّ الناس وأشدهم فسادًا وحمقًا وجهلا وضلالا، وهو حال فرعون وهامان وقارون وأبي جهل وغيرهم.



[أقسام العقلاء بالنظر إلى الفطرة والاكتساب]

انقسم العقلاء بالنظر إلى الفطرة والاكتساب إلى قسمين:

* **أحدهما: عاقل بالفطرة**، حيث ينشأ بعض الناس منذ صغره عاقلًا فطنًا، محبًّا بفطرته لفضائل الأمور، نافرًا من رذائلها.

* **والثاني: عاقل بالاكتساب**، حيث ينشأ بعضُ الناس قليلَ الحكمة، شرس الطباع، تميل كثير من أقواله وأفعاله إلى الطيش والحمق والسّفه، ثم يبدأ بعد ذلك بتنمية عقله عن طريق التجربة والخبرة، ومُجالسة العقلاء أو قراءة سيرهم، وربما فاق عقلا وذكاء وحكمة وحنكة وأدبًا من كان عاقلًا بالفطرة.

ألـم تـر أن الـعـقـل زيـن لأهـلـه وأن كمـال العقل طول التجارب

وإذا كانَ الخُلُق الحسن الفاضل يُكتَسب ويُصنَع بالتخلّق، فكذلك العقل يُكتَسب ويُصنَع بالتعقّل.

ولا خير في حُسْن الجُسوم وطولِها إذا لـم يَزِنْ حُسْنَ الـجسوم عقولُ

وكلّما أخذ الإنسان من الأخلاق الفاضلة حظًّا وافرًا ازداد عقلُه، وأصبح حكيمًا لبيبًا فطنًا، ولو لم يكن قبل اكتسابها كذلك.

فكم من إنسان يُنسب إلى قلة العقل والحكمة، بسبب سوء أخلاقه، وقبح طباعه، حيث تراه شديد الغضب، قليل الأدب، متَّبعًا لهواه، يتصرف بلا رويّة، ويتكلم بكل شيء وفي كلّ شيء ومتى شاء، غير مراعٍ للجليس ولا للوقت المناسب.

ثم يتدارك نفسه، ويُحسُّ بقبح طباعه، وسوء أخلاقه، فيبدأ باكتساب الأخلاق الحسنة، عبر التعلّم والقراءة، ومجالسة أصحاب الأخلاق الحسنة، حتى يُصبح من أعقل العقلاء، وأحكم الحكماء، وأنبل النبلاء، وأفضل الفضلاء.

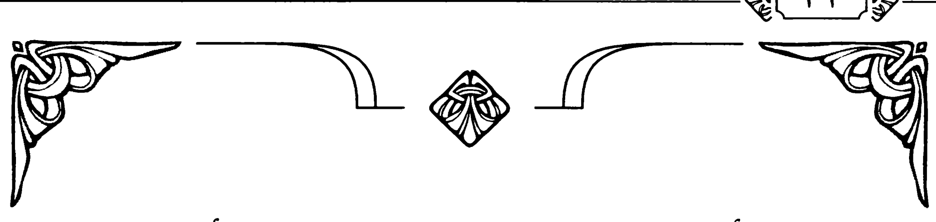
وهذا شيء ملموس وتراه واقعًا.

وكما أنّ الله تعالى ـ بحكمته البالغة ـ فاوَتَ بين أجساد الناس قوةً وضعفًا، وطولا وقِصَرًا، وصحةً وسَقَمًا، منذ أن خرجوا إلى الدنيا: فكذلك فاوَتَ بين طِباعهم وأخلاقهم وعقولهم، فقدّر أن ينشأ بعضهم سيّئ الأخلاق، عسر الطباع، وينشأ آخرون بعكس ذلك، وقدر أن ينشأ بعضهم راجح العقل حكيمًا لبيبًا، وينشأ آخرون بخلاف ذلك.

ولذلك لا يُلام الأب والمربي الناجح إذا نشأ أحد أولاده فاسد الدين، سيئ الطبع، ضعيف العقل، وليس هذا علامة على فشله وسوء تربيته، ولكنّ هذا قَدَره ونصيبه التي اقْتضتْه حكمة الله تعالى.

وهنا يأتي دوره في الصبر والاحتساب، والرفق وعدم اليأس، وكثرة الدعاء بصلاحه، وعدم الركون إلى حسن تربيته وجودة تعامله.





[أقسام الناس بالنظر إلى النشأة]

ينشأ بعض الناس عاقلًا فطنًا، لكنه لم يغذ عقله بالعلم الصحيح، والدين القويم، فيطغى عليه الجهل والضلال فيَفْسد عقله، ويهذي بأقوال ويعمل أعمالا غريبة عجيبة.

وينشأ آخر أقل عقلا وفطنة، ولكنه غذى عقله بالعلم والدين، حتى أصبح من أعقل العقلاء، وأحكم الحكماء.

وكلما كبر الأول ازداد عقله ضعفًا، بخلاف الثاني.

وقد رأيت أناسًا ـ عندما وعيت وميّزت في صغري ـ كانوا معدودين من العقلاء الأذكياء، وكان في كلامهم رزانة واتّزان، وكانت أفعالهم منضبطة لا تكاد ترى في تصرفاتهم ما يقبح ويشين، ولا ما يُنافي المروءة والأدب، وكنت أُعْجَب بهم وبسمتهم ومكانتهم بين أصدقائهم وأقاربهم، وأَعجب من حسن تصرفاتهم في المواقف.

وكثيرًا ما كنت أغبطهم على مكانتهم بين الناس، والتفاف أصدقائهم عليهم، وشغفهم في الجلوس والسفر معهم، وعلى تصدرهم للمجالس في الحديث.

وحين مضت السنون والأعوام، تأملت في حال كثير منهم، ودقَّقت في مآلهم، فرأيتهم قد انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

* **القسم الأول: من لم يسلك طريق العلم، ولم يستنر بنور الدين،** فتراكمت عليه ظلمات الجهل والمعاصي، ونفخ فيه الشيطان، فحسَّن إليه

تحكيم عقله في كل شيء وجمّله في قلبه، حتى في أمور الدين، فلا دين عنده إلا ما يقره عقله، فأنكر الكثير من الْمُسلّمات في الدين، وجاء بآراء عجيبة غريبة شاذّة، وجَعَل يهجم على كل من خالفه وخالف ما توصّل إليه عقلُه.

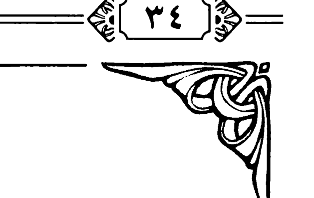
* **القسم الثاني: من لم يسلك طريق العلم، وكانت فيه بقية إيمان ودين**، فرأيت مكانته قد قلّت عما كانت عليه، لكنه لازال من العقلاء.

ولكنْ من كان أقل منه عقلاً وسلك طريق العلم أصبح أعقل وأحكم بكثير؛ لأنه جمع عقول مئات من العلماء والعقلاء والحكماء، فاستنار عقله، ونضج فهمه، وقوي إدراكه، ولطف طبعه.

* **القسم الثالث: من سلك طريق العلم، واستنار بنور الدين**، فهذا الذي علا الجوزاء في فضله ومكانته وبركته ونفعه، وحسنتْ أفعاله، وجملتْ أقواله، حتى تسابق الناس إلى تخليد ذكره، والاقتداء به، ونشر حِكمه ودرره.

نسأل الله من فضله.







[أقسام الناس بالنظر إلى الصحبة]

الناس أقسام ثلاثة بالنظر إلى الصحبة:

* **القسم الأول: عاقل.**

* **القسم الثاني: متعقّل.**

* **القسم الثالث: متحامق.**

فالعاقل: هو من أَعْمل قوانين الحِكمة وحكَّمها في جميع شؤونه وأضعف هواه.

والْمُتَعَقِّل: هو المتشبه بأخلاق العقلاء، فجاهد نفسه على الاقتداء بهم ومصاحبتهم، ومخالفة هواه.

والْمُتَحامِق: هو المتشبه بأخلاق الحمقى، وإن كان في الأصل ليس من الحمقى، لكنه لَمَّا جَالَسَهم وخَالَطهم تطَبَّع بطباعهم، وتخلَّق بأخلاقهم.

وعاشِرْ إذا عاشرتَ ذا العقْلِ تنتفِعْ ... بدُرْبتهِ واحذرْ معاشرة الحَمقى

وحقيقة الحماقةُ: «إهمالُ قوانين الحكمة»(١)، فمن أهمل هذه القوانين من العقلاء كان أحمق، وزالت عنه صفة العقل والحكمة.

فاجتهد غاية جُهدك، واحرص غايةَ طاقتك: ألا تُصاحب إلا العقلاء، ولا تُخالطَ إلا النبلاء.

---

(١) الآداب الشرعية (٣/ ٨٣)، نقلا عن ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ.

تجنب صديق السوء واصْرم حباله فإن لم تجد منه مَحيصًا فداره

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: كلُّ أخٍ وجليسٍ وصاحبٍ لا تستفيد منه في دينك خيرًا: فانْبِذْ عنك صحبته[١]

واحذرْ معاشَرةَ الدنيءِ فإنها تُعدي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ

وبادِرْ بتركه، ولا تُجامله على حساب أخلاقك ودينك، كما قال الشاعر[٢]:

فاهجرْ صديقَكَ إنْ خِفْتَ الفسادَ به واختَرْ شريفًا حليمًا واسِعَ الطِّيبِ

والكفُّ تُقطعُ إنْ خِيفَ الهلاكُ بها على الذراعِ بتقديرٍ وتسبيبِ

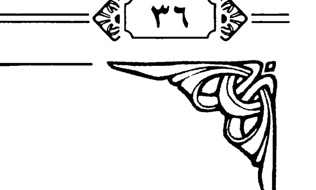
قال الراغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «وقد أحسن الذي قال: إنَّ الأخَ الصالحَ خيرٌ لك من نفسك؛ لأنَّ النفسَ أمارةٌ بالسوء، والأخُ لا يأمرك إلا بالخير». اهـ.



(١) الحلية (تهذيبه) (٢/٣٣٤).

(٢) ديوان أبي العلاء المعري، والشطر الثاني من البيت الأول فيه: إنّ الهجاءَ لمبدُوءٌ بتشبيب.
ولكن غيَّرتُه ليكون مُناسبًا لما أنا بصدده.

(٣) محاضرات الأدباء (١/ ٣٣١).



[أقسام الناس بالنظر إلى العقل والهوى]

الناس أقسام ثلاثة بالنظر إلى العقل والهوى:

* **القسم الأول: من غلَب عقلُه على هواه،** فنشأ منذ صغره عاقلًا، محبًّا للمكارم، مبغضًا للرذائل.

وهذا من أندر الناس، وإذا منّ الله عليه بهمة عالية، واجتهد في تنمية عقله بالعلم والعمل: أصبح من أنفع الناس وأفضلهم، وأعظمهم بركةً وأثرًا وتأثيرًا على الناس.

وإذا لم يكن كذلك: نشأ صالحًا طيّبًا، لكنه قليل النفع، يعيش على وتيرة واحدة لا يحيد عنها.

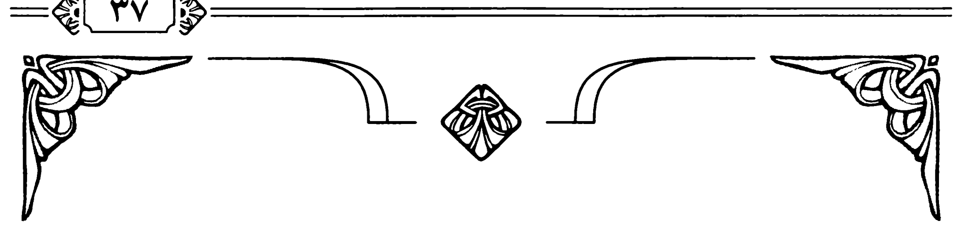
والعقل إذا لم يُنَمِّه صاحبُه بالعلم والعمل والجدّ والشجاعة والصبر والحلم: ضعف كغيره من أعضاء الجسد.

* **القسم الثاني: من غلَب هواه على عقلِه، حتى عطّله وخسره،** فنشأ منذ صغره أحمق، محبًّا للرذائل، مبغضًا للمكارم، وربما صدرت منه أقوال وأفعال لا يقولها ولا يفعلها المجانين.

* **القسم الثالث: من كان هواه في صراع مع عقله،** فتارة تكون الغلبة للهوى، وتارة تكون الغلبة للعقل.

وهذا حال أكثر الناس.

وإذا تدارك هذا ـ والذي قبله ـ نفسه وهداه ربّه وحكّم عقله وتغلّب على هواه: ربما كان أعقل من الأول وأنفع، لاسيما إذا علت همّته، وقويت عزيمته، وصاحَبَ العقلاء، وقرأ وتعلّم ما ينفعه.



[أقسام الناس بالنظر إلى وفرةِ العقل وكثرة العلم]

انقسم الناس بالنظر إلى وفرةِ العقل وكثرة العلم إلى أقسام أربعة:

* **القسم الأول: من عقلُه أوفر من علمه.**
* **القسم الثاني: من علمه أكثر من عقلِه.**
* **القسم الثالث: جاهل أحمق.**
* **القسم الرابع: عالم عاقل.**

فالأول: يحجزُه عقلُه عن كثيرٍ من سفاسف الأمور، ولا يكاد يقع في الأمور الدنيئة، والمواقف الحرجة.

ولكن مع ذلك، قد يُصاب بعض العقلاء بالغرور والعجب والكبر، فيَزدري من تحت يده، أو يظلمهم، فيتضرّر بذلك تضرُّرًا كبيرًا.

وربما تمرد على شرع الله تعالى، وحكّم عقله حيث أُعجب به، ومبدأ غالب البدع والطوائف المنحرفة من رجل عنده عقل وذكاء، لكنه قليل البضاعة في العلم، فحكّم عقله، وأمدّه الشيطان وأزّه، حيث لا رسوخ في العلم عنده، فضلّ وأضلّ.

والثاني: كثير التقلّبات، ويأتي بالغرائب والعجائب، ولا يكاد يستقر على حال، وربما كان علمه وبالا عليه، حيث سخره لهواه أو هوى غيره.

قال البَلْخِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن أحدِ الملحدين: كَانَ عِلْمُهُ فَوْقَ عَقْلِهِ. اهـ[1]

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٧/ ٦٢).

«وكان السهروردي رَحِمَهُ اللَّهُ أوحد أهل زمانه في العلوم الحكمية، جامعًا للفنون الفلسفية، بارعًا في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء فصيح العبارة، وكان علمه أكثر من عقله»(١)

وصدق القائل: «إذا كان علم الرجل أكثر من عقله كان حريًّا أن يضرّه علمه»(٢)

وقيل لابن المقفع ـ وقد اجتمع مع الخليل بن أحمد ـ: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلًا عقله أكثر من علمه.

وقيل للخليل رَحِمَهُ اللَّهُ: كيف رأيت ابن المقفع؟ قال: رأيت رجلًا علمه أكثر من عقله.

قال المغيرة بن محمد رَحِمَهُ اللَّهُ: صَدَقَا، أدى عقل الخليل إلى أن مات أزهد الناس، وجهل ابن المقفع إلى أن قتل.

وذلك أنه كتب كتابًا لعبد الله بن علي، فقال فيه ما كان مستغنيًا أن يقوله، فأمر بقتلِه(٣)

ومن أظهر ما يُستدلّ به على هذا الصنف من الناس: أنَّ قلب الواحد منهم في طرف لسانه، ولا يرجع إلى عقلِه، بل ما جرى على لسانه تكلم به.

بخلاف من عقلُه أوفر من علمه: فلسانُه وراء قلبه، فإذا أراد أن يقول رجع إلى عقلِه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك.

والثالث: جمع الشرّ كلّه.

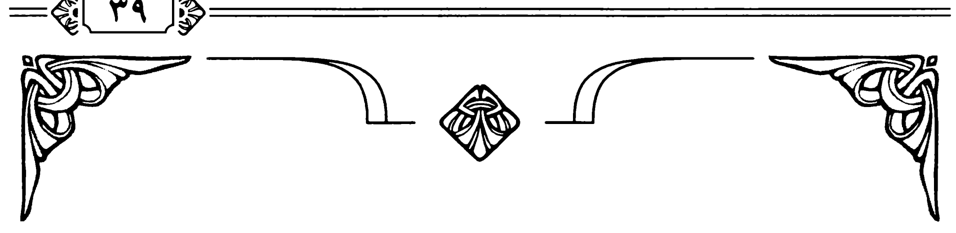
والرابع: جمع الخير كلّه إذا كان معه تقوى وإيمان.

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان (٦/ ٢٦٩).

(٢) بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (ص١١٧).

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١/ ٢٧٦)، الأوائل لأبي هلال العسكري (ص٣٧٧).



[حياة العاقل مقسّمة إلى أربعة أقسام]

• **هل تعرف من العاقل حقًّا؟**

هو من قسَّم حياته إلى أربعة أقسام، وأعطى كلّ قِسْم حقّه، ورتَّب أعماله ونظَّم وقته لأداء هذه الحقوق والقيام بحقّ أصحابها، ولم يتزاحموا عليه فتضيع الحقوق ويُقصّر في حقّ أصحابها:

* **القسم الأول: حقّ الله تعالى**، وهو الحق الأعظم، فجعل قلْبَه مصروفًا له، متعلّقًا به، وجعل حركاته وسكناته دائرةً في مرضاته سبحانه.

* **القسم الثاني: حقّ النفس**، وذلك بقيامه بخمسة أمور.

الأمر الأول: رَفَعَ الجهل عنها بالعلم النافع.

الأمر الثاني: رَفَعَ الحجة عليها بالعمل به ونشره.

الأمر الثالث: حسَّنَ طِباعها، وأصْلح أخْلاقها الظاهرة والباطنة.

الأمر الرابع: حرسها من عدوها اللدود إبليس، الذي أخذ على نفسه إغواءها وإضلالها، وسخر لهذه المهمة أولياءه من شياطين الإنس والجن.

الأمر الخامس: أعطاها ما تشتهي من المباحات بتوسط واعتدال، فلا إفراط ولا تفريط.

* **القسم الثالث: حقّ الناس**، ويبدأ بهؤلاء على جهة الترتيب والأولوية:

أ ـ الوالدان.

ب ـ الأهل والأولاد.

ت ـ الأقارب.

ث ـ الجيران.

ج ـ الأصدقاء.

د ـ بقية الناس.

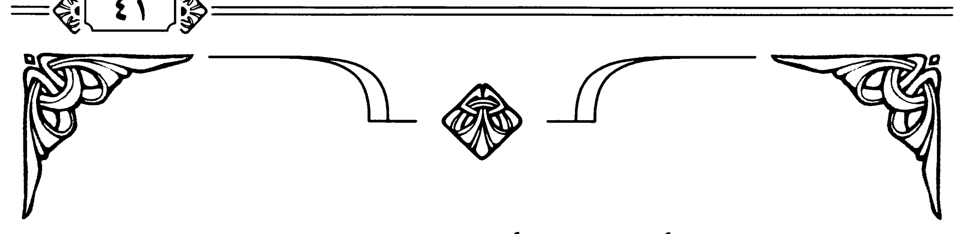
• فأعطى كلّ ذي حقٍّ حقَّه، ورَضِيَ واكتفَى بأدْنى شيءٍ يَصِلُه منهم، وعظّم ذلك في نفسه، وبَذَّل لهم أحسن ما عنده، وأحسن بهم الظنّ، وقبل منهم ما سمحت وجادت فيه طباعهم وأخلاقهم.

* **القسم الرابع**: **الدنيا**، وذلك بأمرين:

الأمر الأول: أن يجعلها بيده، فيسعى في كسب الحلال الذي يستعين به على الخير، ويدفع به مِنَّةَ الناس والحاجةَ إليهم.

الأمر الثاني: أن يُخرجها من قلبه، فيسعى في إنفاق المال في سبل الخير، ولا يحزن على ما فات منها.





[الأعمال الأصلية والفرعية والأشخاص الأصليون والفرعيون]

لو تأملت في الأعمال التي تقوم بها ستراها على درجتين:

* **الدرجة الأولى: أعمال أصلية**، وهي التي تُوليها اهتمامك وتُعطيها حقّها.

* **الدرجة الثانية: أعمال فرعية**، وهي التي لا تُوليها اهتمامًا كبيرًا ولا تُعطيها كمال حقّها.

مثل ذلك: النوم، والطعام، والراحة، والقراءة، والعبادة، ونشر الخير.

فبعض الناس يرى أن النوم والطعام والراحة من الأعمال الأصلية، فلا بد أن يبلغ كمال اللذة والشبع فيها.

والعاقل الفطن يكتفي منها بمقدار حاجته، ويصرف باقي وقته في الأمور الأصلية في حياته، التي هي أولى بالاهتمام والعناية.

• وهنا يرد السؤال: **هل عبادتك لربّك ـ وهي التي خَلَقك الله لأجلها ـ من الأعمال الأصلية في حياتك؟**

كثير من الناس يجعلونها فرعية لا أصلية في حياتهم، فلا تراهم يهتمون بها تمام الاهتمام، ويستعجلون إذا قاموا بها، ولا يتلذذون بها، بينما يهتمون بأمور أخرى اهتمامًا كبيرا، ويتلذذون بالقيام بها، ولا يستعجلون عند القيام بها.

والإنسان يستطيع أن يجعل ما هو أصلي فرعيًا، وكذلك العكس.

وما قيل في الأعمال يُقال كذلك في الأشخاص، فهم على درجتين:

* الدرجة الأولى: **أشخاصٌ أصليون**، وهم الذين تُوليهم غاية اهتمامك، وتُعطيهم كامل حقوقهم.

* الدرجة الثانية: **أشخاصٌ فرعيون**، وهم الذين يأتون في المرتبة الثانية بعد مرتبة الأشخاص الأصليين في تعاملك معهم واهتمامك بهم.

فبعض الناس يجعل أصدقاءه أصليين في حياته، فيُقدّمهم على مَن هم أهمّ منهم، كالوالدين مثلا، فلا يرفض لأصدقائه طلبًا، ويسعى في خدمتهم وإدخال السرور عليهم، ولا يفعل مثل ذلك لوالدَيه.

وبعضهم يجعل نفسه الأصل في حياته، فيُقدّم رغباته وشهواته ومصالحه على من هم أهمّ من نفسه، كالنبي ﷺ، وكالوالدين، فإذا تعارضت رغبتُه مع أمْرِ النبيّ ﷺ، أو تعارضت مع أمْرِ والدَيه ـ في غير معصيةٍ أو ضررٍ عليه ـ قدّم رغبته وهواه، وهذا الْمُنحنى في غاية الضلال وفساد العقل والدِّين.

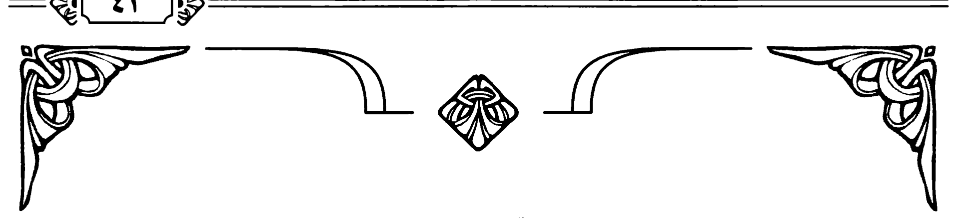
والعاقل ينظر في الأمور المهمّة التي تنفعه في دينه ودنياه فيجعلها أصلًا، ويجعل ما سواها فرعًا.

وينظر في الأشخاص المهمّين الذين لهم عليه حقوقٌ فيجعلهم أصليّين في حياته، ويجعل ما سواهم في المرتبة الثانية.

وهذا من كمال عقله، فيستقيم له دينه، وتطيب له حياتُه، وتنتظم جميع أموره، وتسير أموره على أحسن ما يُرام.

وبالاستعانة بالله أولا، ثم بقوة الإرادة وصدق العزيمة والصبر يستطيع القيام بذلك.

وإذا كان عكس ذلك تنكّدت حياته، وفسدت علاقته مع والديه وأقاربه، وتكدّر عيشُه، وكثر همّه، وتعسّرت عليه أمورُه ولا يُفلح أبدًا.



[العقل إذا سلم مما يُعطّله عن عمله قاده إلى الحق]

إذا رجع الإنسان إلى عقله دون أن يحول بينه وبينه هوى: قاده عقلُه إلى الحق والصواب.

قيل لبعض الأعراب ـ وقد أسلم ـ لَمَّا عرف دعوةَ النبيّ عليه الصلاة والسلام: عن أي شيء أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ فقال: ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به، ولا أحل شيئا فقال العقل: ليته حرمه، ولا حرم شيئا فقال العقل: ليته أباحه.

وسئل أعرابي: بم عرفت ربك؟ فقال: البعرة تدلّ على البعير، وآثار الأقدام تدلّ على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدلّ على العليم الخبير؟!.

قال الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جعل الله في العقول أصولًا ضرورية قطعية أو ظنية ظنًّا قريبًا من القطع، به تستطيع العقول أن تعين الحق من مختلف الآراء، فما صرف الناس عن اتباعه إلا التأويلات البعيدة التي تحمل عليها:

ـ المكابرة.

ـ أو كراهية ظهور المغلوبيّة[١]

---

(١) أي: كراهة ظهور الإنسان عند التحدي والجدال وغير ذلك أنه مغلوب.

ـ أو حب المدحة من الأشياع[١] وأهل الأغراض.

ـ أو السعي إلى عَرَض عاجل من الدنيا. اهـ[٢]

قلت: أو التقليد والتعصب.

ومن سلّمه الله من التأويلات الفاسدة، التي تعمي العقل أو تشلّه: وصل للحق والصواب في كل شؤونه، الدينية والدنيوية، لا سيما إن لجأ إلى الله واستعان به.

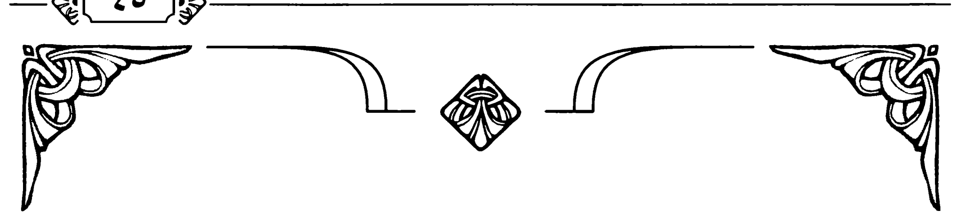
وفي أدمغة البشر ـ مهما بلغت من النضج والذكاء ـ مصابيح مُطْفأة، لا يُشعلها ولا يُوقدها إلا الإيمان بالله تعالى، والعلم بشرعه وكتابه، وحينها تكون كنور الشمس، وتَخْمد في جانب نورها نارُ الأهواء المحرقة للأدمغة، ويكون تفكيرها ونظرها وتدبّرها وحُكمها صوابًا وحقًّا.

ويسري النور إلى سائر الأعضاء، فيُصبح الرجل حكيما عاقلًا رشيدًا، صاحب خلق رفيع، وأدب جمّ، وانقياد تامّ للحق وثبات عليه.



(١) الأشياع: جمع شيَعة، والشيعة: الجماعة الذين يؤَيِّدون إنسانًا ويحبونه ويوالونه.

(٢) التحرير والتنوير (٣/ ١٢).



[الشيء الثمين إن لم يُحسن صاحبه التصرف فيه كان عدمه خيرًا من وجوده]

الشيء الثمين إن لم يُحسن صاحبه التصرف فيه كان عدمه خيرًا من وجوده، وحسن التصرف يُعبّر عنه بالحكمة، والأمثلة على ذلك كثيرة، ومنها:

* **المثال الأول: الذكاء**، فالذكيّ إذا لم يحسن استعمال ذكائه كان البليد خيرًا وأسلم وأهنأ عيشًا منه؛ حيث يدعوه ذكاؤه وجَوْدَةُ تفكيره إلى الانتقام لنفسه والاعتزاز بها، وكثرة العتاب واللوم، والتدقيق في كل شيء، وكثرة التفكير والتردد في كل ما يُقدم عليه.

وفي مثل هذا قال المتنبي:

وذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

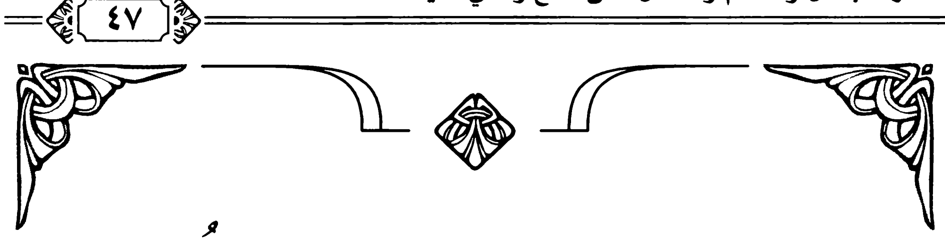
* **المثال الثاني: المال**، فصاحب المال إذا لم يحسن التصرف في ماله كان الفقير خيرًا وأسلم وأهنأ عيشًا منه، فالمال سيكون سببا في تعاسته؛ لبخله به والتعب في جمعه وتحصيله، وحراسته، ثم السؤال عنه يوم القيامة.

* **المثال الثالث: العلم**، فالعالم إذا لم يحسن التعامل مع علمه كان الجاهل خيرًا وأسلم وأهنأ عيشًا منه، فربما دعاه النَّهَم في طلب العلم إلى الترفع والتعالي، واحتقار وازدراء غيره، ومنافسة أقرانه وحسدهم.

* **المثال الرابع: المنصب**، فصاحب المنصب الرفيع إذا لم يحسن التصرف فيه كان الذي لم ينل منصبًا خيرًا وأسلم وأهنأ عيشًا منه، فربما دعاه اللَّهَث وراء المناصب والرفعة إلى التسلط والظلم، فتكون نهايته شرَّ نهايةٍ في الدنيا والآخرة.

فلذلك لا يكن همُّك الكثرةَ والرفعة، بل ليكن همُّك رضا الله تعالى، وستنعم حتمًا بتحصيل الحكمة وحلول البركة.





[نظر الجاهل والعالم والعاقل لمن مُدح وأُثني عليه]

الجاهل إذا مُدح عنده رجل تساءل: ما هي شهاداته وما هو منصبه؟

والعالم يقول: ما هي معلوماته؟

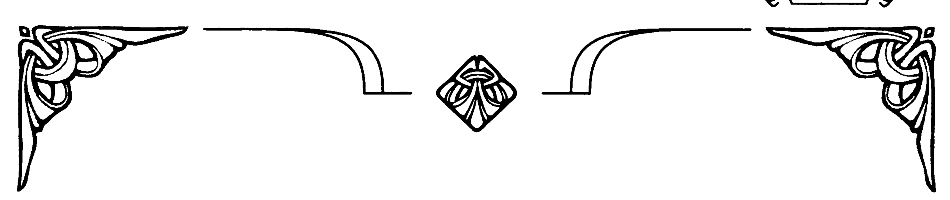
وأما العاقل الحكيم اللبيب فيقول: ما هي أعماله وآثاره؟

فليكن قدر الإنسان عندك على قدر همّته وأعماله ونفعه.

ولا تنظر إلى منصبه وماله وشهاداته.

ولا تلتفت إلى عِلْمه إذا لم يعمل به، فلو كان عنده ذرةٌ من عقل لعمل به.





[أربع صفات يجب أن تتوفر فيمن تستشيره]

لا تستشر إلا من اتصف بأربع صفات:

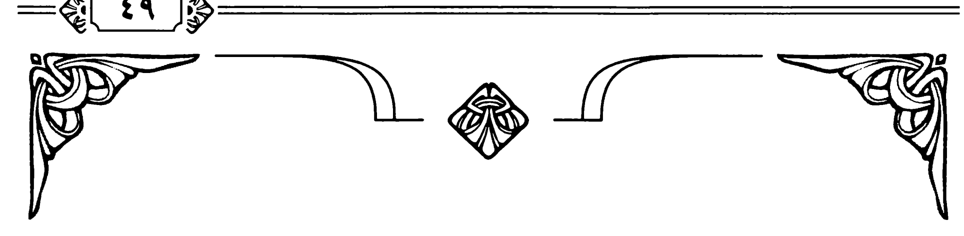
* **الصفة الأولى: الصدق**، فلا تستشر مُجاملًا ولا كذوبا.

* **الصفة الثانية: العقل**، فلا تستشر قليل العقل والحكمة، بليد الذّهن ضعيف الفطنة.

* **الصفة الثَّالِثة: التجربة**، فلا تستشر من لم يُجرّب، فالإنسان عدوّ لما يجهل، والغالب عليه النفرة مما لا يألفُه، وفاقد الشّيء لا يُعطيه.

* **الصفة الرَّابِعة: ألا يكون مبغضًا أو حاسدًا**، فالمبغض يسعى لضرّك، والحسود يتمنَى زوال نعمتك.





[حِجَاب العقل]

عقْل العاقل مهما كبر ونضج، إلا أنَّ هناك حُجبٌ تَحْجُبه وتُعيقه عن عمله، فيتصرف تصرف المجانين أو الحمقى والسفهاء، فكان لزامًا على كلّ عاقل أن يتجنّبها ويحذر منها، وهي:

* **الحجاب الأول: شدة الغضب.**
* **الحجاب الثاني: هيجان الشهوة**(١)
* **الحجاب الثالث: طغيان الغيرة.**

فالغضب والشهوة والغيرة إذا لم تنضبط وزادت عن حدّها: حجبت العقول عن إدراكها وعملها وتفكيرها، وتَغْلُظ هذه الحُجُب وتقوى كلما قوي الغضب واشتدت الشهوة وعظمت الغيرة.

فكن على حذر منها ومن مُهيّجاتها ومُسبّباتها، وابتعد عن كل طريق يقود إليها، وكلّ سبيل يُوصلك إليها، ومن حامَ حوْل الحِمَى يُوشك أن يقع فيه.

ولو تأملت في كلّ المصائب والفتن والشرور التي تحصل بين الناس لوجدت أنّ سببها لا يخرج عن هذه الثلاثة.

وليس المطلوب إزالتها، بل المطلوب ضبطها، وتوجيهها التوجيه الصحيح؛ ليكون وجودها نافعًا لا ضارًّا، ومصلحةً لا مفسدة.

---

(١) تشمل شهوة الفرج، والمال، والمنصب، والشُّهرة، والجاه، والتسلّط، وغيرها.

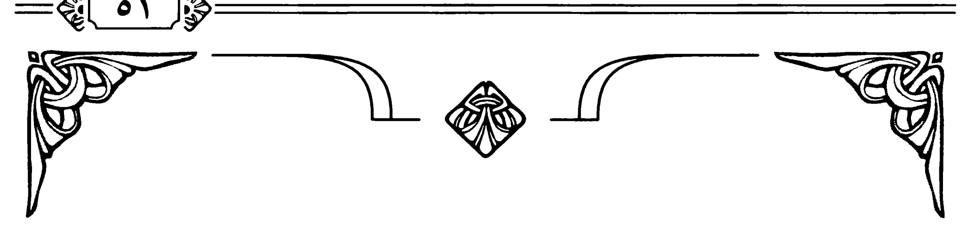
وفي الإنسان ثلاث قوى، وتتشكل شخصيّته حسب القوة التي غلبت عليه:

* **القوة الأولى**: **قوة العقل**، التي فيها الإدراك والفهم والنظر.
* **القوة الثانية**: **قوة الغضب**، التي فيها دفع المضرة.
* **القوة الثالثة**: **قوة الشهوة**، التي فيها جلب المنفعة.

فإذا قويت قوة العقل تحكّمت بقوة الغضب والشهوة، ولم تخرجا عن حُكم العقل مهما كانت الظروف والأحوال.

وإذا قويت قوة الغضب أو الشهوة: ضعفت قوة العقل، وخَفَتَ نور إدراكه وفهمه وتفكيره، حتى يصير الإنسان عند سيطرة غضبه عدوانيًّا همّه الانتقام، ودافعُه الحقد، ويصير عند سيطرة شهوته بهيميًّا همّه إشباع شهواته ورغباته، ودافعُه الهوى.





[آفات تعتري كثيرا من العقلاء تحول دون نبوغهم]

هناك آفات تعتري كثيرا من العقلاء، تحول دون نبوغهم، وتعوقهم عن الوصول إلى القِمَم والغايات النبيلة، وهم يمتلكون أهمّ مقوماتها: وهو العقل الراجح، والنظر الثاقب، والفهم الدقيق، وهذه الآفات هي:

١ ـ الكسل.

٢ ـ المبالغة في التردد والخوف من العواقب.

٣ ـ الهوى وتتبع ملاذّ النفس وشهواتها.

٤ ـ الغضب.

٥ ـ التقليد والتعصب.

وكم حجبت هذه الآفات أو بعضها عقولًا نيّرة، وحرمت صاحب العقل من استعماله، وأسرته في سجنها، وقيّدته بسلاسلها، وعكرت صفْوه، وأطفأت نوره، وأفسدت عمله.

ومن وفقه الله وخلّصه من هذه الآفات: سلمت فطرته مما يُفسدها، فاختارت نفسه كل خلق وقول وفعل حسن، ونفرت من كل خلق وقول وفعل قبيح.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن القلوب الصحيحة والفطر السليمة والعقول المستقيمة لا تطمئن بباطل أبدا»[١]

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/١٥١٦).

ولذلك سأقف عندها بشيء من التفصيل:

الآفة الأولى: الكسل:

إنّ الكسل هو أساس السقم وضيق الصدر والتأخر للوراء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: «ولهذا تجد الكسالى أكثر الناس همًّا وغمًّا وحزنًا، ليس لهم فرحٌ ولا سرورٌ، بخلاف أرباب النشاط والجدِّ في العمل أيِّ عملٍ كان، فإن كان النشاطُ في عملٍ هُمْ عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته: كان الْتذاذُهم بحبِّه ونشاطُهم فيه أقوى». اهـ[١]

وما أعظم خسارة من عنده قدرة على بلوغ القمّة ولم يبلغها، ورضي العيش في الحضيض.

الآفة الثانية: المبالغة في التردد والخوف من العواقب:

إنّ المبالغة في التردد والخوف من العواقب غير محمود، قال أحدُ الحكماء: «من أكثر الفكرة في العواقب لم يَشْجَعْ»[٢]

فلا تُكثر من التفكير والنظر في عواقب ومآلات القرارات التي تتخذها، فما من قرار ورأي إلا له آثار سلبية غالبًا، ولكن انظر في الأمر وتأمله، وقارنْ بين المفاسد والمصالح وكثرة أحدهما، وشاور أهل الخبرة بعد أن تستخير الله تعالى، ثم استعن بالله وأقدم.

«والعزم: هو الْقطع على الْأَمر بعد الرويَّة، فإذا رأيْت صوابا فلا تتردَّد فيه، ولكن امْضِ عليه؛ فإنَّ ذلك هو الحزم»[٣]

---

(١) روضة المحبين (ص١٦٨).

(٢) الكامل في اللغة والأدب للمبرد (ص٦٥١).

(٣) جمهرة الأمثال (٢/ ٥٠).

وإذا تأمّلت في حال كثير مِن العقلاء وذوي النظر فستجدهم من أقلّ الناس أثرًا ونفعًا وعزمًا؛ وذلك لأنهم يُبالغون في النظر إلى العواقب، ويشترطون عدم الخلل في أيِّ أمرٍ يُقدمون عليه، وهذا لا يكاد يكون على أرض الواقع.

ويكمل الإنسان إذا كانت فيه صفتان:

الصفة الأولى: أن يكون ذا رأي راجح، وحكمة وحسن تدبير.

الصفة الثانية: أن يكون ذا عزيمة على العمل بالرأي الذي رآه.

فإن كان ذا عزيمة بلا رأي: أنتج حمقًا وتهوّرًا، وإن كان ذا رأي بلا عزيمةٍ أنتج خمولًا وعجزًا وضعفًا.

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكن ذا عزيمة ... فإنَّ فساد الرأي أن تتردَّدا

وكثير من أهل الرأي والعقل إنما يُضعِفُ عزمَه: مراقبةُ الناس والخوف من انتقادهم وكلامهم، وصدق القائل:

مَن راقَبَ النَّاسَ ماتَ غَمًّا ... وفازَ باللَّذَّةِ الْجسورُ

ونظرُ الناس والخوف من انتقادِهم من أعظم ما يُرهب أهل العقل والرأي، ويُصيب كثيرًا من طموحاتهم وهِمَمهم بالشلل، ويحبس أفكارهم وآراءهم ويمنع حركتها، ويسلُبُها حرّيتها، وانظر إلى الصبي حينما يقع على الأرض أو يُعاتبه أحدٌ بمحضر من الناس كيف يُحْدق النظر بهم؛ فإذا رأى أنظارهم نحوه بكى، وإذا رآهم غافلين عنه هان عليه الأمر.

وتجد الحمقى على العكس من ذلك، فهم يمضون بما يرونه ويهوونه ويقتنعون منه ولا يبالون بالناس صغيرهم وكبيرهم، جاهلهم وعالمهم، ويعملون من السخافات والحماقات ما لا يجرؤ على عُشره المجانين.

والحكيم الناجح الموفق المسدد: يتوسّط في ذلك، فإذا همّ بأمر

استخار الله تعالى أولًا[١]، ثم شاور أهل الخبرة والرأي، ونظر في أمره، ثم إذا لاح له وجه الصواب عزم على المضي في فعله وتوكل على الله، ولم يأبه بعد ذلك لانتقاد الناس وآرائهم وكلامهم.

وصدق أحمد شوقي رَحِمَهُ اللَّهُ يوم أن قال:

إنَّ الشَّجاعةَ في القُلوبِ كثيرَةٌ   وَوجَدتُ شُجعانَ العُقولِ قليلا

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك فقال: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩].

قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: أَيْ: إِذَا عَزَمْتَ عَقِبَ الْمُشَاوَرَةِ عَلَى شَيْءٍ، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ نَفْسُكَ، فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فِي فِعْلِ ذَلِكَ، أَيِ: اعْتَمِدْ عَلَيْهِ وَفَوِّضْ إِلَيْهِ». اهـ.

ولْنأخذ درسًا ومثالًا في المضي على العزم والثبات عليه: روى الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ[٢] أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**رأيت في سيفي ذي الفقار فَلًّا، فأوَّلته فلًّا يكون فيكم، ورأيت أني مردفٌ كبشًا، فأوَّلته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة، ورأيت بقرا تذبح، فبقر والله خير، فبقر والله خير**»، فقال لأصحابه: «**لو أنا أقمنا بالمدينة فإن دخلوا علينا فيها قاتلناهم**»، فقالوا: يا رسول الله، والله ما دخلوا علينا فيها في الجاهلية، فكيف يدخلون علينا فيها في الإسلام؟ فقال: «**شأنكم إذا**»، فلبس لْأمته، فقالت الأنصار: رددنا على رسول الله ﷺ رأيه، فجاءوا،

---

(١) قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: اختلف العلماء: هل المقدم المشورة أو الاستخارة؟ والصحيح أن المقدم الاستخارة؛ لقول النبي ﷺ: «**إذا هم أحدكم بالأمر فليصل ركعتين**».

إلى آخره، ثم إذا كررتها ثلاث مرات ولم يتبين لك الأمر فاستشر، ثم ما أشير عليك به فخذ به. اهـ. [شرح رياض الصالحين: ٧٩٠].

(٢) (١٤٧٨٧، ٢٤٤٥).

فقالوا: يا نبي الله، شأنك إذا، فقال: «**إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل**».

تأمل كيف عَلِم وتحقَّق أنه إذا خرج من المدينة للقاء العدو سيُقتل كثيرٌ مِن أصحابه، ولكنه بعد المشورة والعزم على الخروج راجعوه في ذلك، وطلبوا منه أن يختار الأصلح، فرفض ذلك، وأمضى الأمر في الخروج، ودخل بيته فلبس درعه ولأمته، وهو يعلم إلى أين هو ماض، وما الذي ينتظره وينتظر الصحابة معه مِن آلام وتضحيات، وحتى حين أُتيحت فرصةٌ أخرى بترددِ المتحمّسين، وخوفِهم من أن يكونوا استكرهوه على ما لا يريد، وتَرْكِهِم الأمر له ليخرج أو يبقى، حتى حين أتيحت هذه الفرصة لم ينتهزها ليرجع؛ لأنه أراد أن يعلِّمهم الدرس كله: درس الشورى، ثم العزم والمضي، مع التوكل على الله والاستسلام لقدره، ولا مجال بعد العزم للتردد والتأرجح ومعاودة تقليب الرأي من جديد(١)

فهذا مآلُه الشلل والتأرجح الذي لا ينتهي.

والحزم والعقل إنما في الرأي والشورى، والعزم والمضاء، والتوكل على الله قبل ذلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩].

واعلم أنّ بينك وبين النجاح والتفوق عقبةً قد تعوقك، وحاجزًا قد يمنعك، فمتى ما اقتحمت العقبة، وكسرت الحاجز دخلت عالم النجاح، وبلغت القمة.

ولم أر مثل الإقدامِ بروية، والجسارةِ بحكمة، وعدمِ الالْتفات للعادات التي لا سند لها، والانتقادِ الذي لا حجةَ لصاحِبِه سوى مخالفة المألوف.

---

(١) يُنظر: تفسير المنار (٤/ ٨٣ ـ ٨٤).

ومن عزم على شيء وبدأ به: فلْيمض ولا يترك ما بدأ به إلا إذا تبيَّن له خطأ ذاك الشيء.

«والفوزُ والفلاحُ في الدّين والدنيا لا يتم إلا:

- بالعلم الصحيح.
- والعزيمة الحافزة إلى العمل بالعلم.

فمن خسر إحدى الفضيلتين يصدق عليه أنه خسر نفسه، فما بال من خسرهما كلتيهما؟»[١]

وحرمان الإنسان من قوة العزيمة والإرادة خسرانٌ لنفسه يُوازي خسرانها بفقد عقله، فما قيمة عقلٍ ناضج في بدن ليس فيه عزيمة وإرادة قويّةٌ لإعماله والعمل بما توصَّل إليه من الحق والصواب!

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تتردّدا
وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلا ... فإن فساد العزم أن تتقيّدا

فإذا عزمت فانفذ عزيمتك، فالتردد يفسد العزائم.

الآفة الثالثة: الهوى وتتبع ملاذّ النفس وشهواتها:

الهوى: هو ميلُ النفس إلى شيء، فإن كان ميلُها إلى ما ينفعها في الدين أو الدنيا، بلا إفراط ولا تعدٍّ: فهو محمود.

وإن كان ميلُها إلى ما ينفعها بإفراط أو تعدٍّ، أو إلى ما يضرّها: فهو الهوى المذموم.

وغَلَب إطلاق الهوى على الهوى المذموم.

وفي الإنسان ميزان له كفتان: في إحداها الهوى، وفي الأخرى

---

(١) تفسير المنار (٧/ ٢٨٣).

العقل، فرجحان كفَّةِ الهوى يعني خفَّةَ العقل وطيش صاحبه، ورجحان كفَّةِ العقل يعني قوة العقل وكمال صاحبه.

دخولُك مِن باب الهوى إنْ أردْته يسيرٌ ولكنَّ الخروج عسير

«وإذا غلب عليك عقلك فهو لك، وإن غلب هواك فهو لعدوك»(١)

والنفس كالْمِرآة؛ فمتى كانت الْمِرآة سليمةً من الصّدأ رأيت من خلالها عيوب ظاهرك فأصلحتها، وكذلك نفسك، متى كانت سليمةً من الهوى رأيت من خلالها عيوب باطنك فأصلَحْتها.

وكما أنّ المرآة لا تريك خدوش وجهك في صداها، فكذلك نفسك لا تريك عيوب نفسك في هواها.

الآفة الرابعة: الغضب:

إنّ الغضب إذا مَلك الإنسان كان هو الآمرَ والناهيَ له.

وتأمل إلى حال موسى عليه الصلاةُ السلام حينما علم أنّ قومه عبدوا العجل، فغضب غضبًا شديدًا، حتى إنه ألقى الألواح التي فيها كلام الله، من غير قصد منه، قال الله تعالى واصفًا حاله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤] ولم يقل: سكن؛ لأنّ الغضب إذا اشتدّ كان كالسلطان القوي، يأمر وينهى، ويحثُّ صاحبه على فعلٍ ويأمره به ويقول له: قل لقومك كذا، وألق الألواح، وجرّ برأس أخيك إليك وألحق الأذى به(٢)، ولَمَّا طَفئ الغضبُ ضعف سلطانُه، فلم يعُد قادرًا على الأمر والنهي، ورجع سلطان العقل فأصبح هو الآمر والناهي، فتدارك موسى عليه السلام نفسه وأخذ الألواح التي ألقاها.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٨٧).

(٢) ذكر هذا المعنى بعض المفسرين.

وإذا لم يمتثل الإنسان ما يأمره به غضبه، وجاهد نفسه على ذلك: اندفع عنه شرُّ الغضب، وربما سكن غضبه، وذهب عاجلا، فكأنه حينئذ لم يغضب، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشّورىٰ: ٣٧] وقـــال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٤][١]

فاعزم من اليوم على ألا تغضب، ولو غضبت فاملك نفسك ولسانك وتصرفاتك، ولا تفكّر في الموقف الذي أثار غضبك؛ لأنّ تفكيرك فيه يزيد من غضبك ويُهيِّجه، وربما ارتكبت حال غضبك وتفكيرك بهذا الموقف أمورًا تندم عليها طول عمرك.

وأكثر حالات الطلاق، والقتل، والقطيعة كان سببها الغضب، فإياك والغضب.

الآفة الخامسة: التقليد والتعصب:

والمقصود به المذموم، وهو: «اتباع بعض الناس لمن يعظمه أو يثق به أو يُحْسن به الظن فيما لا يعرف أحق هو أم باطل، وخيرٌ هو أم شر، ومصلحةٌ أم مفسدة.

وأصل التقليد في اللغة: تحلية المرأة بالقلادة، أو الرجل بالسيف، ومنه: تقليد الولايات والمناصب، وقولهم: قلّد فلان الإمام الشافعي مثلا، معناه: جعل رأيه وظنه الاجتهادي في الدين قِلادةً له»[٢]

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أنَّ المقلد عَلَى غير ثقة فيما قلّد فيه، وفي التقليد إبطال منفعة العقل؛ لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن

---

(١) يُنظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/ ٣٦٤).
(٢) تفسير المنار (١٢/ ١٨٦).

أُعطي شمعةً يستضيء بِهَا أن يطفئها ويمشي فِي الظلمة.اهـ[١]

والتقليد المذموم مبنيٌّ على عدم استعمال الإنسان لعقله الذي وهبه الله له، والاكتفاء والتسليم بما نشأ عليه، سواء كان ذلك في الدين، أو الأخلاق، أو حياة الإنسان الخاصة أو العامة.

فمن شدّةِ تعظيمه لما عليه الآباء، أو الناس، أو الشيوخ: يجعل عقله بِمَناً عن النظر في صحة ما هم عليه، ولو جرى نقاشٌ عن ذلك أغلقه وأراح عقله عن التفكير والنظر، وهذه آفةٌ تنخر في عقول العقلاء.

وما قيمة العقل إذن؟

أليس من أعظم أعمال العقل إعماله في التفكر والنظر في هذه الأمور الهامة والضرورية، والتفتيش عن صحتها وخطئها؛ لاسيما في أمور الدين، الذي فيه نجاته أو هلاكه؟

والمقلدون قد خسروا أنفسهم ولم يخسروا عقولهم فحسب؛ «لأنهم حرموا أنفسهم من استعمال أشرف النعم الغريزية وهو العقل، وحرَّموا على أنفسهم أفضل الفضائل الكسبية وهو العلم والفهم»[٢]

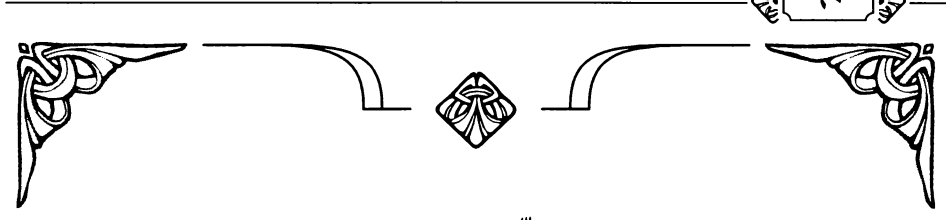
«فالتقليد الذي يختاره الإنسان لنفسه يكون مانعًا له ـ باختياره وإرادته ـ من النظر والاستدلال والبحث عن الحقائق، فهو لا يستمع إلى متكلم ولا داعٍ لأجل التمييز بين الحق والباطل، وإذا وصل إلى سمعه قولٌ مخالفٌ لما هو دينٌ له أو عادةٌ لا يتدبره ولا يراه جديرًا بأن يكون موضوعَ المقابلة والمقارنة مع ما عنده من عقيدة أو رأي أو عادة»[٣]

---

(١) تلبيس إبليس (ص٩٣).

(٢) تفسير المنار (٧/ ٢٨٣).

(٣) تفسير المنار (٧/ ٢٩٩)، مع شيء من التصرف.



[علامات تدلّ على عقل العاقل]

بعد أن عرفنا منزلة العقل والعقلاء، والآفات التي تعتري كثيرًا من العقلاء: لابد أنْ نعرف العلامات التي نستدل بها على عقلِ العاقل، كي نتَّصف بصفاته، ونتخلّق بأخلاقه، ونقترب منه، وهي كثيرة من أهمها:

*** أولًا: أنه يُمسك ما تهواه نفسه من حبّ انتقام، أو فعل رذيلة، أو الكسل وطلب الراحة واللهو؛ مخافة سوء عاقبتها.**

فالعاقل حازمٌ مع نفسه، قويٌّ في إرادته، ماضٍ في عزمه، لا يسمح لنفسه أنْ تخوض في اللعب واللهو، وتنغمس في الكسل والخمول، على حساب دينه وكسبِ عيشه ورزقه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: العقلاء قاطبة متفقون على استحسان إتعاب النفوس في تحصيل كمالاتها، من العلم، والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة، وكل من كان أتعب في تحصيل ذلك كان أحسن حالا وأرفع قدرا.

وكذلك يستحسنون إتعاب النفوس في تحصيل الغنى، والعز، والشرف، ويذمون القاعد عن ذلك، وينسبونه إلى دناءة الهمة، وخسة النفس، وضَعَة القدر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

وهذا التعب والكد يستلزم آلاما وحصول مكاره ومشاق هي الطريق إلى تلك الكمالات.

ومن أمر غيره به فهو حكيم في أمره، ومن نهاه عن ذلك فهو سفيهٌ عدوٌّ له. اهـ(١)

وليس من العقل أن يتّبع الإنسان ما تهواه نفسه ويستمتع بكل ما اشتهت وأحبَّت، ولا يُفكّر في سوء عاقبتها، بل العاقل من ينظر في عاقبة المعاصي وما يقترن بها من الذّلّ والعقوبة في الدنيا والآخرة، فإنَّ العاقل لا يُؤْثر لذةَ ساعة بعقوبة سنة، كما لا يؤثر ما يساوي ريالا على ما يساوي ألفًا، وكيف يُؤْثر عاقل لذةَ ساعة على فوات نعيم مِن صفتِه: «**ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»؟

وليته يفوت وينتهي الأمر، بل مع فواته يحصل له ضَعْفٌ في قلبه، ووَهن في بدنه، وسواد في وجهه، وضيق في رزقه، وكراهةٌ في قلوب الناس، مع ما سيناله من عذابٍ شديدٍ مخيف أليم.

ولا تقرَبْن فعل الحرام فإنّما لذَاذَتُه تفنى وأنت به تشقى

*** ثانيًا: أنه لا يتدخل فيما لا يعنيه، ولا يتوانى عن نفعٍ ومُساعدةٍ فيما يعنيه.**

فالذي يتدخل في أمور لا تعنيه ولا تنفعه، فليس بعاقل؛ لأنه يُلحق الأذى بنفسه وهو غنيٌّ عن ذلك.

والذي لا يُبادر أهله وأقاربه ونحوهم بتفريج كربهم، وحلّ مشاكلِهم وفضّ نزاعهم: فليس بتامّ العقل؛ لأنه يرى الأذى يحلّ بهم، والشرّ ينهشهم، ولا يُحرك ساكنًا.

فليس كف الأذى كمالًا، حتى يُضاف إليه بذل الندى.

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (ص٢٢٥).

وهذا الكلام لابدّ أنْ يُدركه من يصف بعض الناس بكمال العقل، لأنه لم يصدر منهم شرّ تجاه الآخرين، وهذا الحكم ليس على إطلاقه، فالجمادات وبعض المجانين وكثيرٌ من البهائم لا يصدر منهم أذى تجاه الآخرين.

فالعاقل حقًّا: من كف عن الناس أذاه، ولَحِقَهُمْ بِرُّهُ ونَدَاه.

ويسعى إلى تفريج الكرب ولو لم يُطلب منه، بل هو لبيبٌ يفهم بالإشارة، وكما قيل: اللبيب بالإشارة يفهم.

*** ثالثًا: أنه حذِرٌ في كلامه، مُمْسكٌ لسانه عن العجلة، والكلام الرديء، والقاسي، والهذَر.**

كما قيل:

لسان الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده ... فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم

وكان يقال: «عقل الرجل مدفون تحت لسانه».

وقال بعض السلف: «لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام رجع إليه، فإن كان لا ضرر منه تكلم به وإلا تركه، ولسان الجاهل قدام قلبه، يتكلّم بما يعرض له».

وهذا اللسان بريد الفؤاد ... يَدلّ الرجال على عقله

فالحكيم حقًّا هو الذي لا يستعجل في الردّ والكلام، ولا يكون جوابه وردُّه على طرف اللسان، فكم نَدِمَ بعض الْمُتعجِّلين ندمًا شديدًا بسبب عجلته، وقلَّة صبره، فإنه لو صبر وتفكر في الرد والجواب المناسب لتكلَّم بكلام ينفع ولا يضر.

بل لو سكت أحيانًا ولم يردّ على من أساء إليه لكان أحسن وأسلم.

ولذلك قال لقمان الحكيمُ لابنه: يا بني ما ندمت على الصمت

قط، وإن كان الكلام من فضة فإن السكوت من ذهب[١]

وكان يقال: إذا فَاتَك الأدب فالزم الصَّمتَ[٢]

ما إنْ ندمتُ على سكوتي مرَّة ولقد ندمتُ على الكلام مرارا

ولقد كانت لدي آراءٌ تتعلق بالواقع، والأعيان، والمسائل العلمية، لكني تركت الإفصاح عنها وإظهارها؛ حذرًا أو أدبًا، فلما تأمّلتها بعد سنين: تبيّن لي بجلاء أنّ كثيرًا منها كانت خاطئة في ذاتها أو طريقةِ أو زمنِ طرحها.

فالشاب العاقل لا يتعجل بالتصدّر وإبداء آرائه وانتقاداته، فكم ممن تعجّل ندم أشدّ الندم.

ولا يلزم أن يكون لك موقف أو رأي أو كلمة فيما يُطرح على الساحة، أو ما يكون بين أقاربك أو أصدقائك.

وإذا كان لك رأي فلا تتعجل في طرحه، إلا بعد يقينك بصواب رأيك والوقت المناسب لطرحه.

والعاقل لا يندم على تأخره في إبداء آرائه وإعلان مواقفه، ولكنه سيندم على استعجاله في ذلك يومًا أو أيامًا.

وكان يقال: إذا تمّ العقل نقَصَ الكلام.

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خصلتان لا تعدمك مِن الأحمق: كثرة الالتفات وسرعة الجواب.

فمن أعظم وأبرز صفات العاقل: امتلاكُه للسانه امتلاكًا تامًّا، لا يسمح له بالكلام دون الرجوع إلى عقله في جميع الحالات: في الغضب والفرح وغير ذلك.

---

(١) الزهد للإمام أحمد (؟/١٢٦ ـ ١٢٧).

(٢) عيون الأخبار (٢/٥٧٣).

فلسانه عرف قدْر عقله، فأصبح خادمًا له، مُؤْتَمِرًا بأمره، مستسلمًا لحكمه، ذليلًا لسطوته، داخلًا تحت سلطته، آخذًا بمشورته، لا يتجاوزه قيد أنملة.

وأما الأحمق فلسانه متمرّد على عقله؛ رأى ضعفه فأعلن استقلاله، وسفّه رأيه، واستقلّ بحكمه.

والعاقل يُغلّف كلامه بأحسن غلاف وأجمله، حتى لو كان كلامه موجَّهًا إلى من يبغضه، أو ينتقده؛ فإنّ الطعامَ الشهيّ لو كان باردًا لَمَا كان مستساغًا، وإنّ الهديةَ لو أحسّ الْمُهدَى إليه أنّ فيها منّةً لَمَا قبِلها، فكذلك انتقاد الآخرين، أو نصحهم، أو عتابهم ولومُهم، إن لم يكن بأسلوب لطيف رفيق كرهته النفوس وعافته.

* **رابعًا: عملُه بما يراه صوابًا وإقدامه على ذلك، فيتغلب على هواه لكمال عقله**، فتراه يجدّ في تحصيل ما ينفعه في دينه ودنياه، وليس بطّالًا همّه اللعب، والضحك، والسفر، ومجالسة الناس والأصحاب، فتمضي أوقاته هدرًا، لا همّة له في كسبِ مال يصون به عرضه، ويقضي به حاجاته.

ولذلك تجد بعض الناس أُعطوا علمًا وفهمًا، لكنهم لا يُطبقون ما تعلموه وعرفوه واقتنعوا منه، وهذا لنقص عقولهم ولا شك، فالعاقل يسعى في تحصيل العلم ليعمل به ليصل إلى الكمال، وهذا قد علم ولكنه يأبى أنْ يعمل به، ويعلم أنّ الشيء الفلانيّ صوابٌ ولكنه لا يأبه به، أَوَليس هذا سفهٌ ونقص عقل؟

- بلى.

ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: العقل مصدر عقل يعقل عقلا، وإذا كان كذلك فالعقل لا يُسمَّى به مجردُ العلم الذي لم يَعْمَل به

صاحبه، ولا العمل بلا علم؛ بل إنما يُسمَّى به العلم الذي يُعْمَل به، والعمل بالعلم، ولهذا قال أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [المُلك: ١٠]. اهـ[١]

فالعمل ثمرة العقل وفائدته، ولا عقل لمن لم يعمل بموجب ما دله إليه عقله.

*** خامسًا: صبره وثباته عند المصائب والمحن والفتن.**

فالعاقل الحكيم لا يُعرف إلا عند حلول المصائب التي تطيش معها عقول الجهال والحمقى.

فكن عند المصائب والخلافات في غاية الحلم والأناة والصبر، واحذر من الطيش والعجلة؛ فإنها تؤدي إلى المفاسد والأضرار الفظيعة.

ومن لم يكن صبورًا حليمًا فهو خفيف العقل؛ وأيّ خفة أشد من ذلّ الجزع وطيش الغضب؟

وما ينفع العقل إذا لم يُسعف صاحبه عند الحاجة إليه؟

والعقول تعرف عند البلاء لا عند الرخاء، فما أكثر المتظاهرين بالعقل في زمن الرخاء، وعند البلاء لا يبقى إلا العقلاء ظاهرا وباطنا.

والفرق بين العاقل والأحمق: صبر ثوان معدودة فقط، فالعاقل صبّر نفسه عدة ثوان عندما يُستغضَب، وعندما يسير على مركبته ولم يُسرع، وعندما يُطلب رأي من جماعة وهو من ضمنهم.

وكان يقال: إن جاريت الأحمق كنت مثله، وإن سكت عنه سلمت منه.

وأقرب طريق للتحلي بالحلم:

١ ـ الْتماس الأعذار.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٩/٢٨٦ ـ ٢٨٧

٢ ـ تهوين المصيبة والمشكلة مهما عظمت.

* **سادسًا: أنه فطن متغافل**، فهو ذكيّ يفهم الأمور بقرائنها ومقاصد من يتعامل معه بفلتات لسانه وسوابق أيامه، لكنه لا يعمد إلى إبراز ذلك، بل يُشعر من أساء أنه لم ينتبه له حتى لا يُحوجه إلى الكذب أو مواجهته والإصرار على خطئه.

وكثير من الأمور يظنها بعض الناس من نقصِ العقل، ولكنها عند العقلاء من كمال العقل، ومن ذلك: التغافل.

والتغافل: هو تصنع الغفلة والتظاهر بها، حيث إنّ المتغافل يُشعر من صدرت منه زلةٌ أو موقف محرج أنه لم يشعر به، وهذا من كمال العقل؛ لأن من لا يتغافل عن أخطاء وعيوب الناس حتى ولو كانت موجّهة إليه فسيفتح عليه أبواب الهموم والخلافات، وهذا مناف للعقل.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: اللبيب العاقل هو الفطن المتغافل[١]

وقال الشاعر في هذا المعنى:

ليس الغبيّ بسيد في قومه ... لكنَّ سيّد قومه المتغابي

والتغافل كذلك من أعظم أسباب راحة البال، والبعد عن المنغصات والمشاجرات.

فتغافل عن عيوب الناس وتقصيرهم في حقك، ولا تبحث عن مقاصدهم السيئة، ولا عليك من ذلك.

وبعض الناس لا يكاد يسمع من أحد كلامًا لا يُعجبه إلا أوقفه وعاتبه عليه، ولا يرى ما يكره إلا تبعته نفسه وحرص على اللوم والتسخّط، حتى لو لم يكن الكلام أو الموقف فيه إساءةٌ له، فإذا رأى

(١) صفة الصفوة (٢/ ٥٥٤).

أحدًا في الطريق مسرعًا غضب وقال: لِمَ العجلة؟ وإذا همس أحدٌ لصاحبه بكلام غير مسموعٍ سعى في التحقيق والتثبت: لماذا قلت كذا؟ من تعني؟

ومثل مَن لا يتغافل ويتصدّى لأذى الناس له أو لغيره ومن يتغافل عن ذلك: كصفيحتين كبيرتين مُنصوبتين في العراء، إحداهما مصُمتة، والأخرى مثقّبة، فحين تهبُّ الرياح تُقاومها الصفيحة المصمتة قليلا، ثم لا تلبث أن تعصف بها الرياح وتُسقطها، بينما الصفيحة المثقّبة تظلّ صامدةً؛ لأنها لا تتصدّى للرياح، بل تجعلها تمرُّ مع الثقوب وتنجو من عنفوانها.

فيا أخي: الكلام يطير في الهواء، فاجعله يمضي في طيرانه، ولا تتصَدّ له فتتأذى أذى قد يُفسد صحتك، أو يقتل همّتك، أو يُثني عزمك.

وإِن بُليتَ بشخصٍ لا خلاقَ له ... فكنْ كأنكَ لم تسمعْ ولم يَقُلِ

والعاقل يداري الناس - في غير معصية وخطأ بيّن - مداراةَ السابح في الماء الجاري، ويتغافل عن أخطائهم، ويعتذر لزلاتهم، ويُكْبِر ما يصله منهم ولو كان صغيرا، فتجد الناس يقبلون عليه، وقلوبهم ممتلئة بمحبته، ونفوسهم متشوفة لمجالسته.

يزدحم الناسُ على بابه ... والمنهلُ العذبُ كثير الزِّحام

والصبرُ على بعض الناس الذين فيهم جفاءٌ أو حِدَّةٌ، وخاصةً زملاء العمل، والمعارف والعامة ومُداراتهم من أهمّ ما ينبغي على العاقل أنْ يقوم به، ومن لم يصبر عليهم طواعيةً قد يضطر إلى الصبر عليهم مُرغمًا، كما قال الشاعر[1]:

وإني إذا لم أَصبر اليوم طائعًا ... فلابدّ منه مُكرهًا غيرَ طائعِ

(١) الصداقة والصديق لأبي حيان (ص٢٣١).

وتشتد الحاجة إلى المداراة، والكلام اللين الحسن، في حق كثيرٍ من الأقارب وأصدقاء العمل، فإن لم تفعل ذلك نفروا منك، بل وربما طالكَ الأذى منهم.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «مُداراةُ الناسِ نصفُ العقلِ».

والعاقلُ يستعمل المداراة حتى مع بعضِ أعْدَائِه، الذين يعلم أنَّه لو كاشفهم العداء، وأبَان لهم البغضاء، لألحقوا به الأَذىَ والضرر.

ولَـمْ أَرَ فـي الـخُـطُـوبِ أشَـدَّ هَـوْلًا   وأصـعـبُ مِـنْ مُـعـاداةِ الـرِّجـالِ

قال بعض الحكماء: «إظهار المودة للأعداء من مكايد العقلاء».

وهذا حق، وهو من الدهاء والحكمة، فالعدو يريد حينما يقوم باستفزازك أن تبادله العداوة ليزيد من عداوته وتسلطه.

* **سابعًا: استشارتُه لأهل الخبرة والعلم والتجربة**، فالعاقل كثير الاستشارة لأهل الخبرة والمعرفة والعلم.

قال بعض الحكماء: «إنما يَحْتَاج اللبيبُ ذو الرأي والتجربة إلى المشاورة ليتجرَّد له رأيُه من هواه»[(١)]

وصدق؛ فإنّ اللبيب ذا الرأي والتجربة إذا هوى شيئًا ربما ظهرتْ له محاسنُه، وعمي أو غفل عن عُيوبِه، وهذا أمرٌ مجرّب واقع، ولذلك قيل: «عين الهوى لا تَصْدق، وحبُّك الشيء يُعْمي ويُصِمّ»، فحبك للشَّيْء يعميك عن مساويه، ويُصِمّك عن اسْتِماع مَن يَعِيبُه.

فإذا استشار عاقلًا لم يهو ما هواه أبان له ما غَفَل هو عنه، وأوضح له الأمر على حقيقته، وجلّى له صورته، فلا يَسَعُه حينها إلا أنْ يحمد الله على عدم عجلته، ويشكره على أن وفَّقه للاسْتِشارة.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٨٧).

*** ثامنًا: إيثاره السلامة لِدينِه وعرضِه ولو كان فيه خمول ذكره، على المخاطرة وخرم المروءة ولو كان فيه غناه وشهرته.**

ولسان حاله:

ما على العاقل المهذّب عار ... إنْ غدا خاملا وذو الجهل سامي
فاللُّباب الشّهيّ بالقشر خافٍ ... ومصون الثمار تحت الكُمام

*** تاسعًا: الأناةُ والتروِّي، وعدمُ العجلةِ في كل شيء، في إبداء الرأي، وفي الردِّ واتخاذِ القرارات.**

فالعاقل يتثبّت مما يسمع ويقرأ، ولا يُسلّم لكل ما يسمع وما يقرأ من الأخبار والمعلومات، بل يتفحّصها ويدقّق فيها، ويتأكد من صحّتها.

والإنسان قلّ أنْ يندم على الترويّ والرفق والحلم، ولكنه كثيرًا ما يتجرَّع الندم والألم بعجلته ومُبادرته في الرد والسبّ.

فداويتُه بالحلمِ والمرءُ قادرٌ ... على سَهْمِه ما دام في كفِّه السَّهْمُ

وكثيرًا ما يحدث ما يُكدر الخاطر، ويُهيج الغضب، فيشعرُ الإنسانُ بدافعٍ يدفعهُ للردّ بعنفٍ على من آذاه، وإسكاتِه وإغضابه، ولا يُفكر في تلك اللحظة في عواقب فعله وغضبه، فيندم بعد ذلك، ويُحدث في القلب جُرحًا يصعُبُ علاجُه.

*** عاشرًا: النظر إلى العواقب بلا مبالغة.**

والنظر إلى مآلات الأمور وما يعقبها من خير وشرّ من أعظم صفات العقلاء، قال أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما فُضِّل العقل على الحس بالنظر في العواقب، فإن الحسّ لا يرى إلا الحاضر، والعقل يلاحظ الآخرة ويعمل على ما يتصور أن يقع، فلا ينبغي للعاقل أن يغفل عن تلمح العواقب، فمن ذلك أن التكاسل في طلب العلم وإيثار عاجل الراحة يوجب حسرات دائمة لا تفي لذة البطالة بمعشار تلك الحسرة،

ولقد كان يجلس إلي أخي وهو عامي فقير، فأقول في نفسي قد تساوينا في هذه اللحظة فأين تعبي في طلب العلم؟ وأين لذة بطالته؟

ومن ذلك أن الإنسان قد يجهل بعض العلم فيستحي من السؤال والطلب لكبر سنه ولئلا يرى بعين الجهل فيلقى من الفضيحة إن سئل عن ذلك أضعاف ما آثر من الحياء.

ومن ذلك الطبع يطالب بالعمل بمقتضى الحالة الحاضرة مثل جواب جاهل وقت الغضب، ثم يقع الندم في ثاني الحال على أن لذة الحلم أوفى من الانتقام، وربما أثر ذلك الحقد من الجاهل فتمكن فبالغ في الأذى له.

ومن ذلك أن يعادي الناس وما يأمن أن يرتفع المعادي فيؤذيه، وإنما ينبغي أن يضمر عداوة العدو.

ومن ذلك أن يحب شخصا فيفشي إليه أسراره ثم تقع بينهما عداوة فيظهر ذلك عليه.

ومن ذلك أن يرى المال الكثير فينفق ناسيا أن ذلك يفنى فيقع له في ثاني الحال حوائج فيلقى من الندم أضعاف ما التذ به في النفقة، فينبغي لمن رزق مالا أن يصور السن والعجز عن الكسب، ويمثل ذهاب الجاه في الطلب من الناس، ليحفظ ما معه. ومن ذلك أن ينبسط ذو دولة في دولته فإذا عزل ندم على ما فعل وإنما ينبغي أن يصور العزل ويعمل بمقتضاه.

ومن ذلك أن يؤثر لذةَ مطعم فيشبع فيفوتُه قيام الليل، أو يؤثر لذة النوم فيفوته التهجد، أو يأكل أو يجامع بشَرهٍ فيمرض.

ومن ذلك اشتغال العالم بصورة العلم، وإنما يراد العمل به والإخلاص في طلبه فيذهب الزمان في حب الصيت وطلب مدح الناس فيقع الخسران إذا حصل ما في الصدور.

ومن ذلك اقتناع العالم بطرف من العلم، فأين مزاحمة الكاملين والنظر في عواقب أحوالهم؟ وقد يؤثر الأسهل كإيثار علم الحديث على الفقه ومعاناة الدرج تسهل عند العلو.

وشرح هذا يطول لكن قد نبهت على أصوله، لقد جئت يوما من حر شديد فتعجلت راحة البرودة فنزعت ثوبي فأصابني زكام أشرفت منه على الموت، ولو صبرت ساعة ربحت ما لقيت، فقس كل لذة عاجلة ودع العقل يتلمح عواقبها والله أعلم.اهـ(١)

فعندما تلوح لك لذّةٌ عاجلة: فدع العقل يتلمّح عواقبها، ويتأمّل في مآلاتِها، وستعرف هل هي لذّة خالصة محضة أم أنها ستعقبها حسرات.

وإنما فُضِّل العقل على الحسّ بالنظر في العواقب، فإن الحس لا يرى إلا الحاضر، والعقل يلاحظ العواقب والمآلات.

جرّب هذه القاعدة النفيسة في كلّ أمر ستُقدم عليه راغبًا فيه.

قال ابن الجوزي: أبْله الناس من عمل على الحال الحاضرة، ولم يتصور تغيُّرها، ولا وقوعَ ما يجوز وقوعه.

مثاله: أن يغتر بدولته، فيعمل بمقتضى ملكه، فإذا تغيرت هلك! وربما عادى خلقًا؛ اغترارًا بأنه متسلط، أو أنه صاحب سلطان، فإذا تغيرت حاله أكل كفَّه ندمًا عند فوات التدارك!

وكذلك من له مال يبذره؛ سكونًا إلى وجود المال، وينسى حاله عند العدم! ومن يتناول الشهوات، ويكثر من المآكل والمشارب والنكاح؛ ثقة بعافيته، وينسى ما يعقب ذلك من الأمراض والآفات!.اهـ(٢)

---

(١) نقل كلامه ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

(٢) صيد الخاطر (ص٣٤٧).

* **الحادي عشرة: تغلّبه على عواطفه(١) التي تُثار عند الغيرة، والمحبة، والشهوة**، فيتحكّم بها ولا يسمح لها أن تتحكم به؛ ومتى استولت العاطفة على الإنسان في هذه الحالات تغلّبت على العقل والدين، فأصبح شبيهًا بالمجانين والحمقى، ولو كان من أعقل العقلاء، وأحكم الحكماء، وأذكى الأذكياء.

فهو يسيطر على المواقف ويتحكّم بها، ولا يدعها تسيطر عليه وتتحكّم به وبمشاعره وعقله وأعصابه.

فإذا كان في مجلس وأساء أحدُ الأدب معه أعْمَل عقله في تلطيف الجو، وتلافي تعكير صفْو الجلسة، ولم يجعل سوء أدبه يتحكّم به ويُفقده أعصابه وسيطرته.

لأنّه يعلم أنّ سرعة الانفعال والغضب بلا داعٍ نابعٌ عن خفّة في العقل، وقلة في الحكمة، ويستحضر دائمًا ـ خصوصًا عندما يرى مِن أحدٍ ما يكره ـ وصية الله لنبيه ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الرُّوم: ٦٠]؛ أي: لا يحملنك أعداؤُك على الخفّة والقلق وترك الصبر.

والخفيف يهتزّ ويضطرب عند أدنى تأثير ومكدّر، وخاصةً إذا رأى العاقل عنادَ من يرشده إلى الصلاح، وذلك مما يستفزّ غضب الحليم، فيكون خفيف العقل قليل الصبر.

* **الثاني عشرة: أنه متفائل مُحسنٌ الظنّ بخالقه ورازقه، ولا يعرف للتشاؤم طريقًا.**

وإنك لا تكاد تجد متفائلا بالخير، مُحسنًا رجاءه وظنّه بالله إلا كان الله تعالى عند ظنّه، وفَتَح له أبواب الخير، وشرح صدره حتى

---

(١) العاطفة: هي عبارة عن مجموعة من المشاعر القلبية، التي تجيش وتفور عند المواقف التي تُثيرها.

لا يكاد يجد للمصائب آلامًا في نفسه، ولا تجد متشائمًا سيّئ الظنّ بالله إلا فُتحت عليه أبواب الشرّ، وضاق صدره حتى لا يكاد يجد للنِّعم التي يتقلّب بها سرورًا، ويجد للمصائب غصصًا في حلقه يكاد يموت منها غمًّا وكمدًا وحزنًا.

قال النبي ﷺ: يقول الله تعالى: «**أنا عند ظنِّ عبدي بي، إنْ ظنّ بي خيرا فله، وإنْ ظنّ شرا فله**»(١)

وفي رواية: «**فليظن بي ما شاء**»(٢)، يعني: «ما كان في ظنِّه فإني فاعله به»(٣)، وهذا عامّ لا يجوز حصره في أمور معيّنة، فالله تعالى عند ظنّك به في كلّ شؤونك وأمورك، والظنّ الحسن يقتضي حسن العمل والجدّ والاجتهاد.

وقد كان شعار أصحاب النبيّ ﷺ في غزوةِ هوازن: «أَمِتْ أَمِتْ»(٤)

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه التفاؤل بموت الخصم»(٥)

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو أمرٌ بالموت، والمراد به التفاؤل بالنصر بعد الأمر بالإماتة»(٦)

فإن قلت: أحسنتُ الظنّ بربي في بعض الأمور فحصل لي ما لا أريد!

---

(١) رواه الإمام أحمد (٩٠٧٦، ١٦٠١٦)، وصححه محققو المسند، وأصله في البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه الإمام أحمد (١٦٠١٦، ١٦٩٧٩)، وصحح إسنادَه محققو المسند.

(٣) الجواب الكافي لابن القيم (ص٢٥).

(٤) رواه الإمام أحمد (١٦٤٩٨)، وأبو داود (٢٥٩٦)، وصحح إسنادَه محققو المسند، وصححه الألباني.

(٥) نيل الأوطار (٧/ ٢٨٧).

(٦) نقله عنه صاحب كتاب: عون المعبود (٧/ ١٨٤).

فالجواب عن ذلك بأمرين:

الأمر الأول: أنّ حسن الظن بالله سبحانه مثل الدعاء، والله تعالى قد وعد من دعاه بأن يُجيبه، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غَافر: ٦٠]، ومع ذلك فليس كلّ من دعاه أجابه؛ لأنه لا بد من انتفاء الموانع التي تمنع إجابة الدعاء، فمن دعاه بصدق لكنه يعصي الله ويُقصّر في طاعاته له: كانت معاصيه وتقصيره في طاعته مانعًا له من أن يُجاب في دعائه.

وكذلك حسن الظن بالله، لا بدّ من انتفاع الموانع التي تمنع مَن أحْسن الظن بربه من أن يكون ربّه عند حسن ظنه به.

الأمر الثاني: أنّ المؤمن الذي أحسن الظن بربه في كل شؤونه لا يُصيبه إلا الخير المحض، ولو كان ظاهر ما أصابه شرًّا وضررًا عليه، فقد كانت المصيبةُ الكبيرة: حادثة الإفك، التي اتُّهمت فيها الصدّيقة عائشة رضي الله عنها بأنها ارتكبت الفاحشة والعياذ بالله، وشاع ذلك بين الناس: خيرًا، مع أنّ ظاهرها شرٌّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النُّور: ١١]، «لِمَا تضمن ذلك: تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تَنَاول عمومُ المدح سائرَ زوجات النبي ﷺ، ولِمَا تضمَّن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمرا جعل له سببا»(١)

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن**»(٢)

فكن متفائلا دائمًا بالنصر على العدو، وبالنجاح، وبسعة الرزق،

---

(١) تفسير السعدي (ص٥٦٣).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

والعافية، والعاقبة الحسنة في كل أمورك، ولن يخيّب الله تعالى ظنك به، وحسن رجائك به.

* **الثالث عشر: أنه رسم لنفسه منهجًا في حياته وتعامله مع نفسه وأهله وأصدقائه والناس**، والذي ساهم في رَسْم منهجه: دينُه ثم عقله، بعيدًا عن هواه وشهواته وحظوظ نفسه.

فلذلك تجده ثابتًا في مبادئه، لا يكاد يتغيّر ولا يتقلب ولا يتذبذب.

وهذا بخلاف حال بعض الناس، الذي لم يرسم له منهجًا أصلا، فتراه يتخبّط خَبط عشواء، وإن رسم له منهجًا فالذي رسَمَه له هواه وشهواته وحظوظ نفسه.

فلذلك لا تجده ثابتًا في مبادئه، وتراه كثير التغيّر والتقلب والتلوّن والتذبذب، والازدواجية في التعامل مع الناس وشؤون حياته.

* **الرابع عشر: أنه يتعلم من أخطائه ولا يكررها.**

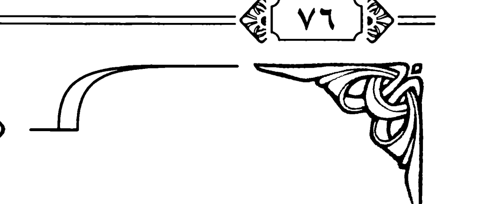
وهذا بخلاف الأحمق، فإنه لا يكاد يستفيد من أخطائه، وتراه يقع في الخطأ مرة بعد المرة، والعاقل لا يُلدغ من جُحْر مرتين.

* * *

فطبّق ـ أخي القارئ ـ هذه العلامات على كلّ من تعرف؛ لتُمَيِّز العاقل الذي ينبغي لك أن تصحبه، أو تقتدي به، واعمل بها، لتكون عونًا لك على نضجِ عقلك، وسعادتِك في حياتك، وتكون رفعةً لك عند ربك إذا ابْتغيت بذلك ما عند الله تعالى.

والعاقل من اتَّصف بهذه الصفات، فإنْ قصَّر في إحداها نقص من عقله بقدر تقصيره.





[هل نقدم أدلة الشرع أم أدلة العقل؟]

قبل أن أجيب على هذا السؤال لا بدّ أن أذكر أمرًا مهمًّا، وهو أنّ الشرع الحنيف جاء بأحسن الأديان، والأخلاق، والسياسات، والمعاملات، والفصل بين الخصومات، وجاء بالحجج العقليّة على ذلك ما لا يُمكن لجميع البشر أن يأتوا بمثله.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا﴾ [الكهف: ٥٦]، «ففرّق بين الآيات الدالة على العلم؛ التي يُعْلَم بالعقل أنها دلائل للرب، وبين النذر؛ وهو الإخبار عن الْمَخُوف؛ كإخبار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب؛ فهذا يعلم بالخبر، وأما الآيات: فتعلم دلالتها بالعقل.

والأنبياء جاؤوا بالآيات والنذر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ﴾ [النّحل: ٤٣، ٤٤]، ومثل هذا كثير، يذكر أن جميع الأنبياء جاءوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل»(١)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأمر ما عليه سلف الأمة، أهل العلم والإيمان، من أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بيَّن من الأدلة العقلية التي يحتاج إليها في العلم بذلك ما لا يَقْدر أحدٌ من هؤلاء ـ أي: المتكلمين المتفلسفة ـ قدْرَه، ونهاية ما يذكرونه جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه. اهـ(٢)

---

(١) النبوّات، لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص٨٦).

(٢) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٨).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا الدين الحق يُعرَف بالعقل أنه هو أفضل الأديان؛ لأن الدين هو الخضوع والانقياد والعمل، فلا بد له من شيئين:

١ ـ من مقصودٍ هو المعبود.

٢ ـ ووسيلةٍ هي الحركة.

فأي معبود يُسَامِي الله؟

وأي قصدٍ للمعبود خيرٌ من أن يكون القاصد ذليلًا له مخلصا له، لا متكبرا ولا مشركًا به؟

وأيُ حركةٍ خيرٌ من فعل الحسنات؟ .اهـ(١)

والقول بأن تلك الطائفة تحُكّم العقل، أو أنهم عقلانيون، بمعنى أنهم يرجعون للعقل ليكون حاكمًا على كلّ شيء حتى على شرع الله: خطأ، فهم إنما يُحكِّمُون أهواءهم لا عقولهم، وإلا فالعقل السّليم لا يُخالف النقل الصحيح.

وإذا حكّم الإنسان عقله متجرِّدًا من الهوى والتقليد والكبر: لم يَحْكُم العقلُ إلا بكلِّ صواب وحقّ في الجملة، وإلا لَمَا أمر الله تعالى بالتفكّر والنظر والتدبّر لمعرفة الحق من الباطل، ولا يكون هذا إلا بالعقل.

وبعد هذه المقدمة نأتي على هذا السؤال: هل نقدم أدلة الشرع أم أدلة العقل؟

الأصل وجوب تقديم النقل الصحيح الثابت عن الله تعالى وعن نبيّه محمد ﷺ على العقل؛ لأن النقل مقطوع به، بخلاف العقل، والعقول تتفاوت، فأيّ عقل نحكّم عند الاختلاف؟

---

(١) جامع المسائل (٦/ ٢٦).



قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو قيل بتقديم العقل على الشرع، وليست العقول شيئًا واحدًا بيِّنًا بنفسه، ولا عليه دليل معلوم للناس، بل فيها هذا الاختلاف والاضطراب: لوجب أن يُحَال الناس على شيء لا سبيل إلى ثبوته ومعرفته، ولا اتفاق للناس عليه.

وأما الشرع فهو في نفسه قولُ الصادق، وهذه صفة لازمة له، لا تختلف باختلاف أحوال الناس، والعلم بذلك ممكن، وردُّ الناس إليه ممكن، ولهذا جاء التنزيل برد الناس عند التنازع إلى الكتاب والسنة، كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٥٩]، فأمر الله تعالى المؤمنين عند التنازع بالرد إلى الله والرسول، وهذا يوجب تقديم السمع، وهذا هو الواجب؛ إذ لو رُدُّوا إلى غير ذلك من عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم وبراهينهم لم يزدد هذا الرد إلا اختلافًا واضطرابًا، وشكًّا وارتيابًا.

ولذلك قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البَقَرَة: ٢١٣].

فأنزل الله الكتاب حاكمًا بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ إذ لا يمكن الحكم بين الناس في موارد النزاع والاختلاف على الإطلاق إلا بكتاب منزل من السماء.

وقد تأمّلت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يُعْلم بالعقل بطلانها، بل يُعْلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشرع.

وهذا تأملته في مسائل الأصول الكبار؛ كمسائل التوحيد والصفات، ومسائل القدر، والنبوات، والمعاد وغير ذلك، ووجدت

ما يُعْلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قط، بل السمع الذي يقال إنه يخالفه: إما حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلًا لو تجرّد عن معارضة العقل الصريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول؟

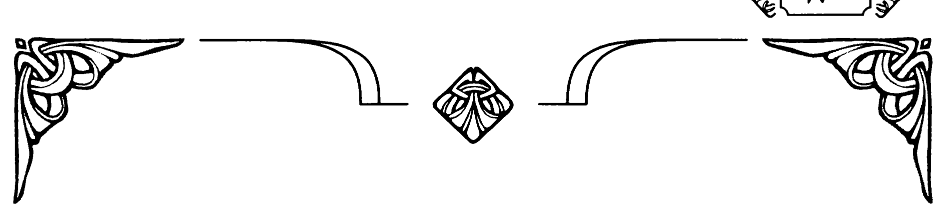
ونحن نعلم أن الرُّسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لا يخبرون بمحالات العقول، بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يَعْلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته.

فالنصوص الثابتة في الكتاب والسنة لا يعارضها معقول بيِّنٌ قط، ولا يعارضها إلا ما فيه اشتباه واضطراب.

وما عُلِم أنه حقّ: لا يعارضه ما فيه اضطراب واشتباه لم يُعْلم أنه حق»[1]



(١) درء تعارض العقل والنقل (١/١٤٦ ـ ١٤٧، ١٥٥).
أي: ما عُلم من الأدلة العقليّة أنه حقّ مقطوع به: لا يعارضه من الأدلة السمعية ما فيه اضطراب واشتباه لم يُعْلم أنه حق.



[هل الإسلام مبنيٌّ على محض الاتباع أم هو مبنيٌّ على العقل؟]

هناك سؤال مهم جدًّا يدور في أذهان كثير من الناس، ألا وهو: هل الإسلام مبنيٌّ على محض الاتباع لتعاليمه، بأن تقول: «سمعنا وأطعنا» في كلّ شيء، ولا يعترف بالعقل والنظر والفكر، أم هو دين مبنيٌّ على العقل؟

والجواب: أنّ البحث عن الدين الحق يعتمد على العقل، وذلك بالنظر والتفكّر في شرائعه وما يدعو إليه، والعقل السليم يدل الإنسان على صحة هذا الدين القويم.

وحينما يدخل الإنسان في دين الإسلام الذي هو أصح الأديان وآخرها، ولا يقبل الله دينًا غيره، بقناعة تامّة: يجب عليه التسليم المطلق لكلّ أحكامه وشرائعه.

وسأضرب لذلك مثالا من الواقع: حينما تمرض فإنك ستذهب إلى الطبيب الحاذق، وبعد أن يعطيك العلاج ستأخذه بدون الحاجة لأن تقتنع بصحة الدواء أو تركيبته، فبعقلك اخترت الطبيب، ثم أخذت العلاج بمحض التسليم بتوجيهاته وأوامره.

إذن: العقل والمنطق يستخدم للوصول إلى الإسلام، ثم بعد الوصول والتحقق من صحته بعقلك وفكرك: يكون الاتباع المطلق والاستسلام التامّ، ولن تكون مؤمنًا إلا بهذا، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ

لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النِّساء: ٦٥].

وهناك أمور جاء بها الدين لن يستوعبها عقلك، كالحكمة من جعل صلاة المغرب ثلاث ركعات، والفجر ركعتين، وكبعض الأمور الغيبية، ولكن غالب أحكام الإسلام، والأمور الغيبية: يمكن للمسلم معرفةُ الحكمة والمصلحة منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصّلَت: ٥٣]: الآيات التي يُريها الناس حتى يعلموا أنّ القرآن حق هي آيات عقليّة؛ يَسْتدلّ بها العقل على أنّ القرآن حقّ.

والقرآن مملوء من ذكر الآيات العقليّة التي يستدلّ بها العقل، وهي شرعيّة؛ لأنّ الشرع دلّ عليها، وأرشد إليها. اهـ(١)

وانظر إلى موقف الصحابي الجليل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حادثة الإسراء والمعراج، وهو أمرٌ غير معقول بالنسبة للموازين البشريّة، ولكنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما علم أنّ الرسول ﷺ قال ذلك صدّق مباشرة بلا تردد ولا نظر ولا تأمل وتفكير؛ لقناعته التامة المطلقة أنه صادق، ولذلك سُمّي بالصديق.

وإذا لم تفهم الحكمة من شيء مما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ فاستحضر هذه الأمور الثلاثة:

* **الأمر الأول**: أنّ الله بكل شيء عليم.

---

(١) النبوّات (ص٢٩٣).

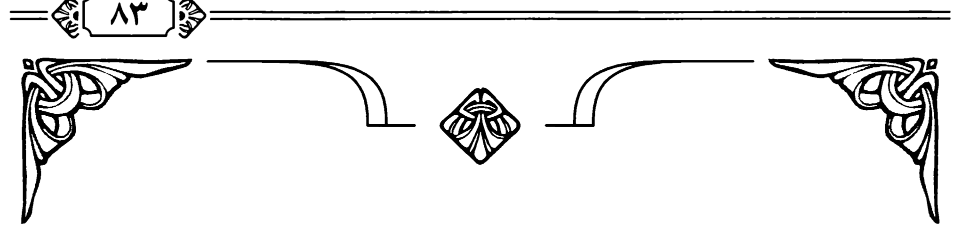
* **الأمر الثاني**: أنّ الإنسان ليس بكلّ شيء عليم.

* **الأمر الثالث**: أنّ ما يأتي من الله تعالى فهو الأفضل؛ لأنه يعلم ونحن لا نعلم.

ولتقريب الصورة: تخيل أن يرجع بك الزمن إلى العصر الحجري، ثم تشرح للناس ما يوجد بعد آلاف السنين، من الهواتف، والأقمار الصناعية، والطائرات التي تحلق فوق السحاب، والركاب يحتسون القهوة ولا تضطرب الأكواب التي يشربون بها، وغيرها من المخترعات العجيبة، والصناعات الغريبة، فلن يصدقوا، ولن يقتنعوا، مع العلم أنها هي الحقيقة، وكونهم لم يقتنعوا لا يغير من الحقيقة شيء، ولو صدّقوك فسَيُفسّرون ذلك بأنه سحر.

حتى لو جاء أديب بليغ وشرح لهم ذلك لأمسك النقّاد بتلابيبه وقالوا: إن الخيال مقبول، ولكن إن بلغ هذا المبلغ صار من التوهّم المرذول، وصار صاحبه محمومًا يهذي لا أديبًا يتخيّل.





[العاقل يختار الطريق الذي يسلك به إلى السلامة أو الغنيمة، على الطريق الذي يسلك به إلى السلامة أو الهلاك]

من الأمور الْمُسلّمة والبَدَهيّة والعقليّة أنّ من سلك طريقًا ثم تفرّع إلى طريقين مختلفين:

* **الطريق الأول: ينتهي به إلى السلامة أو الغنيمة.**
* **الطريق الثاني: ينتهي به إلى السلامة أو الهلاك.**

فإنّه سيختار ـ بلا شك ـ الطريق الأول.

وهناك طريقان بالنسبة للإيمان بالبعث:

الطريق الأول: ينتهي بك إلى السلامة أو الغنيمة، وهو أن تُؤمن بذلك وتصدّق، وتتمسك بالدين الحقّ، فإنك بين أمرين:

ـ إما أن لا يكون هناك بعث ولا حساب في الحقيقة، فقد سلمت.

ـ وإما أن يكون هناك بعث وحساب، فقد غنمت ونجوت وفزت؛ لأنك عملت واجتهدت واستعددت لهذا اليوم.

الطريق الثاني: ينتهي بك إلى السلامة أو الهلاك، وهو ألا تؤمن بذلك ولا تصدّق، ولا تتمسك بالدين الحقّ ولا تبحث عنه، فإنك بين أمرين:

ـ إما أن لا يكون هناك بعث ولا حساب في الحقيقة، فقد سلمت.

ـ وإما أن يكون هناك بعث وحساب، فقد هلكت وخسرت.

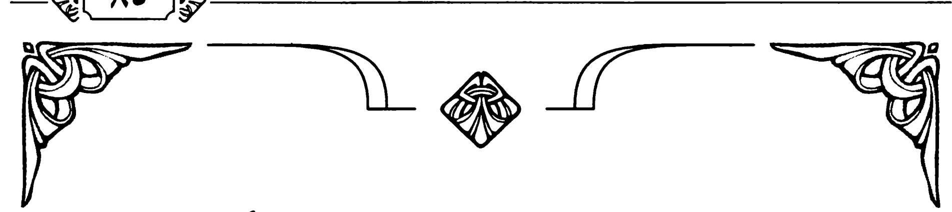
هذا من جهة المنطق العقلي، ونحن نوقن يقينًا لا يتطرقه شكّ بأنّ هناك بعث وحساب، وأن مَن آمن بالله وأطاعه دخل جنة عرضها السماوات والأرض، وأنَّ مَنْ كَفَر به دخل نارًا تلظّى، ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٥، ١٦].

وإذا داخلك شكّ في هذا الطريق، فإنه سيبقى أن هناك احتمال أن يكون صحيحًا، وليس من العقل إلغاءُ وتجاهل احتمالِ ـ ولو بنسبة قليلة ـ وقوع ضرر كبير عليك وأنت قادر على اجتنابه والسلامة منه، ولا يكلّفك عناءً وتعبًا، بل من المتفق عليه أنّ السعادة والراحة والطمأنينة النفسية في هذا الطريق لا في سواه.

وسوف ترى الأدلة العقلية على هذا الطريق وصحته بمشيئة الله تعالى.

فإياك أن تفرط وتسوّف وتتجاهل مصيرك، فلا تدري متى يتخطّفك الموت، وتندم ندمًا لا ينقضي ولا ينقطع.





[حجج عقليّة تزيد المؤمن إيمانًا، وتُزيل شُبَه وشكوك من شكّ في وجود الله ﷻ أو في صدق نبوّة النبي محمد ﷺ أو الوحي الذي أُنزل عليه]

كل من سلم من الهوى والتقليد الأعمى، وأعمل عقله وتفكر بحياد: دلّه عقله على الدين الصحيح، والمنهج الواضح في الاعتقاد والأخلاق والتعامل.

وإليك هذه الحجج العقليّة التي تزيد المؤمن إيمانًا، وتُزيل شُبَه وشكوك من شكّ في وجود الله ﷻ أو في صدق نبوّة النبي محمد ﷺ أو الوحي الذي أُنزل عليه:

الحجة الأول: كلُّ عاقلٍ يعلم بداهةً حينما يرى آلةً مصنوعة أنّ لها صانعًا، ولا يخطر في باله أن يعرف أسرار تشغيلها وما بداخلها كي يستدل على وجود صانع لها، ولو فعل ذلك لاتّهمه الناس في عقله.

ولله المثل الأعلى، فهذه المخلوقات البديعة الدقيقة، من الكائنات الحية، والسماوات الواسعة العريضة، والأكوان العجيبة، والبحار التي تحوي عجائب الخلق: ألا تدل على أنّ لها صانعًا؟

ولذلك أكْثَر الله تعالى من الأمر بالتفكر في آياته، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ

﴿فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرُّوم: ٢٢ ـ ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عِمرَان: ١٩٠].

وهذه الآيات يكاد يتفق عليها الناس، ولا تحتاج إلى مزيد بحث واستقصاء، ونظر وعلم.

ولذلك كان أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يحتجون على أقوامهم بخلق السمٰوات والأرض، قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

فإذا كان مِن السفه وقلَّةِ العقل السؤالُ عن تفاصيل الصناعة البشرية لأجلِ التصديقِ بأنَّ لها صانعًا، فالسؤال عن تفاصيل الصناعة الربانية والآيات الكونية أشدّ في السّفه وقلّة العقل.

وإذا كانت الآيات الكونيةُ شاهدةً ودالةً على عظمةِ وجلالةِ وحكمةِ الله تعالى، فكيف بآياته الشرعية؟

فهي والله أعظم دلالة، وأقوى بيانًا على عظمة الخالق وحكمته وإتقانه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

* **الحجة الثانية**: يُقال لمن نفى وجود الله لأنه لم يره: كيف تستدلّ على وجود عقلك ومخك وأنت لم تره؟

سيقول: أستدل على وجود وكمال عقلي بأفعالي وتصرفاتي.

فنقول له: ونحن نستدل على وجود الله بأفعاله وخلقِه وبديعِ صنعه، وعظمةِ شرعِه، وبلاغة وكَمَال كلامِه في كتابِه القرآن الكريم المحتوي على أعلى صنوف البلاغة والبيان، وأتمّ وأحسن الوصايا والشرائع والأحكام، وأنسبها للبشريّة، وأحكمها وأفضلِها.

ألا يدلّ كلّ هذا على وجود الربّ الحكيم اللطيف الخبير؟

* **الحجة الثالثة**: يُقال لمن يشكّك في نبوّة النبي محمد ﷺ: عاتب الله تعالى في القرآن النبي ﷺ في عدّة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ [عَبَسَ: ١ ـ ٩].

أي: «كَلا، ما الأمر كما تفعل يا محمد من أن تعبس في وجه من جاءك يسعى وهو يخشى، وتتصدّى لمن استغنى»[(١)]

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٦٧ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فهل يُعقل أنْ يأتي رجلٌ يدّعي النبوّة وأنه نزل عليه كتاب من الله يُؤيّده ويحث الناس على اتباعه، ويقرأ على الناس عتاب الله له؟

هذا لا يكون إلا من رجل صادق، قد جمع الله له نواحي الصِّدْق والأمانة والثقة بالنفس، ولا يدّعي شيئًا من عنده، ولا يُخفي شيئًا مما

(١) تفسير الطبري (٢٤/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

أنزل الله عليه لتبليغه، ولو كان مما يستثقله عامة البشر في حقّهم وعن ذواتهم، بل هو مبلّغ عن الله.

بخلاف من يدّعي النبوة وهو كاذب وأن الله أنزل عليه القرآن فلن يجعل في القرآن إلا ما يحثّ على طاعته، ولن يُطيل الكلام في تفاصيل الأحكام الشرعيّة، وقصص الأنبياء، وأحوال الناس بعد الموت.

ومن يدّعي النبوة وهو كاذب سيكون همّه جمعَ المال وتثبيت دعائم ملكه بتولية أقاربِه، ولكن النبي ﷺ لم يجمع مالا، بل قال بكلّ صراحة: **«لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ»**(١)

وكان يأمر أبا بكر رضي الله عنه أن يصلي بالناس إذا غاب، وهو ليس من قراباته، ولم يأمر عليًّا ولا العباس وغيرهما من أقاربِه رضي الله عنهم، بل قال بكلّ وضوح في مرض موتِه: «**لقد همَمت أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد** ـ أي: بالخلافة ـ، **أن يقول: القائلون أو يتمنى المتمنون، ثم قلت: يأبى الله ويدفع المؤمنون**»(٢)

الحجة الرابعة: يُقال لمن يشكّك في أن القرآن الكريم منزل من العزيز الحكيم: كثيرًا ما يختم الله تعالى آيات القرآن بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزّخرُف: ٣]، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٤٤]، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعَام: ٨٠]، وذلك لأن الله تعالى هو الذي تكلّم به، وكلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكلامه بلغ الغاية في البلاغة، والفصاحة، والبيان، والإعجاز، والصدق، ولا يدانيه أيُّ كلام، فحثّ كلَّ من قرأه على البحث والنظر والتأمل في آياته المحكمة، والتفكر والتدبر في أحكامه وأخباره الباهرة؛ بل إنَّ الله تعالى تدرج في تحدي جميع الفصحاء والبلغاء أن يأتوا بمثله، ثم بعشر سور مثله، ثم بسورة واحدة فقط.

---

(١) رواه مسلم (١٧٥٧).
(٢) رواه البخاري (٥٦٦٥).

وهذا تنزلًا منه ﷻ القادر المقتدر لعباده الضعفاء المساكين، وهكذا ـ ولله المثل الأعلى ـ لا يتحدى أحدٌ من البشر غيره بشيء من الصناعات ونحوها إلا مَن كان واثقًا مما يقول، ولا أحدَ يعرض بضاعته لأهل الخبرة والصَّنْعة، ويطلب منهم أنْ يفتِّشوا فيها، ويتحداهم أن يجدوا فيها خللا وعيبًا، إلا من كان واثقًا أشدّ الثقة بجودة بضاعته، فكيف بكلام رب العالمين، الذي جعل كلامه المنزل على رسوله معجزةً دائمةً ما دامَت السموات والأرض.

فالقرآن «يحرّض الإنسان على أن يتذكر، ويتفكر، ويعتبر، ولو كان القرآن يريد أن يخدع الإنسان، لما أثار انتباهه إلى ضرورة التذكر والتفكر والتدبر والاعتبار.

والمُنْصف بالحق يُهِمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل، عكس المدلس الذي يهمه أن يستر العقل جانبًا؛ لينفُذَ من وراء العقل.

وفي حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما، ويستعرض معك مَتَانتها ومحاسنها؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمِّي عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

هذا ما يحدث فيما بين البشر، فما بالنا حين يعرض خالق الكون على مخلوقاته أسرار الكون ويدعوهم عبر منهجه إلى التذكُّر والتعقُّل والتفكُّر والتدبُّر والاعتبار.

والحق سبحانه يطلب منا ذلك ثقة منه في أن الإنسان إن فعل ذلك فسيصل إلى مراد الحق من الخلق.

وهذا دليل على أننا لو بحثنا هذه الآيات لتوصَّلْنا إلى مطلوبه سبحانه، وهو الإيمان.

ولو تعقلتَ، لو تدبرتَ، لو تذكرتَ، لاهتديت إلى ما جاء به القرآن»[١]

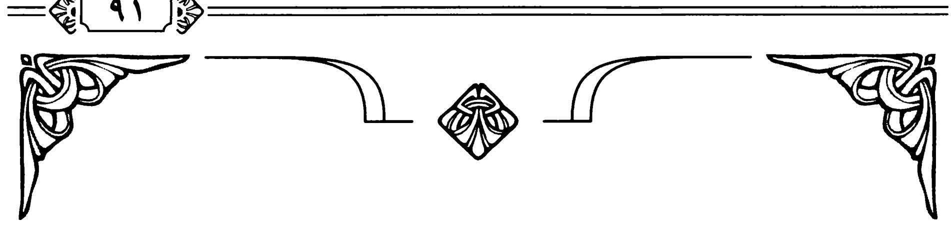
واعلم أنّ دين الإسلام دين العقل الصحيح والفطرة السليمة، وكلّ من خالف ما فيه فليس معه إلا شُبَهٌ وظنون وشكوك، وصدق شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ حين قال: «المخالفون للكتاب والسنة والإجماع، والْمُدَّعون حصول القواطع العقلية: إنما معهم شُبَهُ المعقولات لا حقائقها»[٢]



---

(١) تفسير الشعراوي (٩/ ٥٧١٧، ١١/ ٦٨٢٨، ١٧/ ١٠٣٩٩، ١٨/ ١١٣٧٧).

(٢) جامع المسائل (١/ ٦٤).



[الأدلة العقلية على القضاء والقدر]

الإيمان بِالْغَيْبِ: هو أعظمُ ما يتميَّزُ به المسلمُ عنِ الكافر، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله تعالى به، أو أخبر به رسوله ﷺ، سواءٌ شاهده أو لم يشاهده، وسواءٌ فهمه وعرف حكمته، أو لم يهتد إليه عقلُه وفَهْمُه.

وممَّا يدخُلُ بالإيمان بِالْغَيْبِ: الإيمانُ بالقضاء والقدر، الذي هو من أعظمِ أركان الدين، ومِن أوجبِ الواجبات التي فرَضَها ربُّ العالمين، قال النبي ﷺ: «**الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١)

ومعنى الإيمان بالقضاء والقدر: أن تؤمن بأنَّ كلَّ ما في الكون، من مَوجوداتٍ ومَعدوماتٍ عامةٍ وخاصةٍ، فإنه بمشيئة الله وتقديره، وتعلمَ أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

والإيمان بالقدر يقوم على أربعة أركان، تُسمى مراتبَ القدر، ولا يتم الإيمان به إلا بتحقيقها كلِّها.

* **المرتبة الأولى: المشيئة**: وهي الإيمانُ بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون، ولا هداية ولا إضلال، إلا بمشيئته تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التّكوير: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

(١) رواه مسلم (١٠٢).

فالعبد له مشيئة وإرادة، ولكنها تحت مشيئة الله ﷻ، فلو شاء العبد أمرًا مثل السفر، فهذا السفر شاءه العبد، فإذا شاءه الرب مكَّنه منه وهيَّأ له الأسباب، ونفَى عنه الموانع.

وإذا لم يشأ الله له السفر لم يمكّنه منه، كأن لا يهيئ له الأسباب، أو يُوجِد مانعًا يمنعه من السفر ويصرفه عنه.

وهذه المشيئة التي ينتج عنها العمل يُجَازى عليها العبد، إما ثوابا وإما عقابا، بحسب نوع العمل.

ومما يشكل على بعض الناس: أنه كيف يُتصوّر أن تكون مشيئتنا داخلة تحت مشيئة الله؟ وكيف لا نشاء إلا أن يشاء الله؟ ومعنى هذا أن نكون مسيرين لا مخيرين.

وسأضرب مثالا يزيل الإشكال بحول الله: لو أن لصًّا أراد أن يسرق بيتًا، فعلمت الشرطة بذلك، فأخذت تراقبه ولم توقفه ولم تقبض عليه، بل تركته، فذهب وقفز سور المنزل، ثم عالج الأبواب ففتحها، ثم عالج أبواب الخزنه، كلُّ هذا تحت نظر وسمع الشرطة وتحت مشيئتها، ولو أرادت لمنعته وصرفته عن هذا العمل، ولكنها شاءت أن يسرق حتى تمسك به متلبسا بالجرم المشهود، ثم توقع عليه أشد العقوبة.

فلما خرج اللص من المنزل متلبسا بفعلته النكراء، ألقت القبض عليه، ثم جازته على سرقته، فهل لهذا اللص أن يعترض ويقول: لقد علمتم أني سأسرق، ومكنتموني من ذلك، فأنتم شئتم السرقة؟ لا، بل سيُجيبه رجال الشرطة بقولهم: نحن لم نُجْبِرْك على السرقة، وأنت تعرف أن السرقة ممنوعة، وأن السارق يعاقب، فأنت سرقت بإرادتك ومشيئتك.

فإرادةُ السارق تحت إرادة الشرطة، كلُّ واحدٍ منهما له إرادةٌ، فالسارق سرق بإرادته، والشرطة مكنته من السرقة بإرادتها، ولو شاءت

لمنعته، ولكن لم تفعل ذلك: لتُقيم عليه الحجة، ولتُمسكه مُتلبِّسًا بجريمته.

وإرادة الشرطة لسرقة اللص ليس إرادة حبّ، فهي لا تحب أن يكون هذا الرجل شريرًا، بل تحب أن يكون صالحًا، لكنه أبى إلا طريق الشر.

ومثال آخر: لو أن دولةً منعت رعاياها من السفر إلى دولة معينة، وأن من يسافر إليها ستُوقع عليه أشد العقوبة، فقام شخص من الناس واستصدر تذكرة ثم توجّه إلى المطار ثم سافر إلى تلك الدولة، كلُّ هذا ودولته تعلم عنه ولكنها تركته لتعاقبه، فلما عاد أُلقي عليه القبض، فلما علم أن دولته تعلم عن سفره ولم تمنعه، اعترض قائلًا: أنتم سمحتم لي ولم تمنعوني من السفر، فقالت له دولته: صحيحٌ أنك سافرت تحت مشيئتنا، ولو أردنا لمنعناك، ولكننا تركناك تفعل ما تشاء لكي نُقيم الحجة عليك، ونُمسكك مُتلبِّسًا بفعلك، ثم نعاقبك بما تستحقّ.

وإرادة الدولة لسفر الرجل ليس إرادة حبّ، فهي لا تحب أن يُخالف هذا الرجل القوانين، بل تحب أن يكون مواطنًا صالحًا متبعا للنظام، لكنه أبى إلا طريق الخطأ.

ولله المثل الأعلى، فالعبد له إرادة ومشيئة، ولله إرادة ومشيئة، فالعبد يفعل ما يشاء باختياره وإرادته، لكنه تحت مشيئة الله تعالى ونظره وإحاطته، فإن أراد مَنْعَه مَنَعه، وإن أراد هدايته يسَّر له الأسباب، وفتح له الأبواب، وإن أراد خذلانه، تركه ونفسه، ولم يمنع الشياطين من التسلط عليه.

والله تعالى يقول: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التّكوير: ٢٨، ٢٩]، فأثبت للعبد مشيئة، ولكنها تحت مشيئة الله تعالى.

وإرادة الله ومشيئته لضلال الضال وكفر الكافر ليست إرادة ومشيئة حبّ لضلاله وقصد لإغوائه، بل هي الإرادة والمشيئة الكونية القدريّة.

وقال قال الله تعالى في الإرادة الدينية: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البَقَرَة: ١٨٥].

وقال في الإرادة الكونية: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٣]، وقال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعَام: ١٢٥].

وقال تعالى في القضاء الديني: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: ٢٣]؛ أي: أمر.

وقال تعالى في الكوني: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فُصّلَت: ١٢].

* **المرتبة الثانية: الخلق**: وهي أنْ تؤمن بأن جميع الكائنات مخلوقةٌ لله، وأنَّ الله تعالى خلق كلَّ شيءٍ من العدم.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الرّعد: ١٦].

* **المرتبة الثالثة: العلم**: وهي أنْ تؤمن بعلم الله المحيطِ بكلِّ شيءٍ، وأنه لا يكون شيءٌ إلا بعلمه ودرايته.

قال الله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك: ١٣، ١٤].

ولْنتأمل فيما بين أيدينا من أجهزة الحاسب، والشبكةِ العنكبوتية، وكيف تُحصي آلافَ المعلومات، وهي مُخزَّنةٌ لديها منذ عشرات السنين، لم تلْتبس معلومةٌ بأخرى، ولم تَفْسُدْ من كثرةِ ما يُوضَعُ فيها.

تأمل في هاتف الجوال الذي معك، وكيف تكلِّم من شئت في أيِّ مكانٍ في العالم، دون أسلاكٍ وتوصيلات، وإنما هي ذبذباتٌ في الهواء،

لم تتصادم المكالماتُ بعضُها مع بعض، تأمَّل كيف تُكلِّمه وهو في آخر الأرض، فيردُّ عليك خلال ثوانٍ معدودة، ويُريك نفسه وما حوله عبر شاشةٍ صغيرة، بل وأعجب من ذلك: أنهم لو أرادوا مكالمةً لأحضروها، ولو كانت قبل عدَّة سنوات، وكلُّ هذا وهو صُنْعُ البشر، فكيف بالجبار والقهار الْمُقتدر.

وصدق الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يُونس: ٦١].

أما **المرتبة الرابعة وهي الأخيرة: فهي الكتابة:** وهي الإيمان بأن الله تعالى كتب ما سبق به علمُه، مِن مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ.

وهذه المرتبةُ لا يتمُّ الإيمان بدونها، ولا يستقيم للعبد إسلامٌ إلا بها.

تأمل قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحجّ: ٧٠].

ما أصرحها من آيةٍ وأوضحها، بأنَّ الله جلَّ جلاله يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، من صغير وكبيرٍ، ودقيقٍ وجليل، لا تخفى عليه خافية، والسرُّ عنده علانية، يعلم عدد قطر الأمطار، وما يكون في البحار والأمصار، وعلمه هذا كلُّه قد أثبته في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم فقال له: «**اكتب**»، قال ما أكتب؟ قال: «**اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة**».

ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العَنكبوت: ١٩].

فهو يسيرٌ على الله تعالى، أليس مَن يعلم ما كان وما سيكون، يسيرٌ عليه كتابةُ علمه؟، بلى والله.

أليس اللهُ الذي خلقنا وخلق كلَّ شيءٍ، والذي يعلم السر وأخفى: يعلم ما سوف نعمله من أعمالٍ صالحةٍ أو سيئة؟ بلى، فإذا كان يعلم ذلك: فهو قادرٌ على كتابة علمه، ولذلك قال محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: ما يُنْكِرُ قومٌ أن ٱلله عَزَّوَجَلَّ عَلِمَ شيئًا فكتبه؟[١]

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن الله خلق الخلق، وعلم ما هم عاملون، ثم قال لعلمه: كن كتابًا، فكان كتابًا[٢]

فهو سبحانه عَلِمَ ما سيكونُ فكتبه وأملاه في اللوح المحفوظ، وليس معنى كتب: أوجب وألزم، بل أملى عِلْمَه وأثبته.

ولو مسكت بكأس وقلت لمن عندك سأرمي الكأس على أرض صلبة، وقبل أن أرميه اكتب ماذا سيحدث، فكتب: سيرمي محمد الكأس على أرض صلبة، ثم سينكسر وستتبعثر أجزاء الكأس.

فالكتابة سابقة لِما سيحصل، فهل حينما أسقط الكأس وحصل ما كتبه يكون قد ألزمه بكسر الكأس؟

لا، بل كتب علمه، ولا علاقة لذلك بإلزامه ولا إجباره.

وهكذا مسألة كتابة الله لمقادير الخلق، فهو تعالى علم ما هم عاملون، فكتب علمه تعالى.

واعلم أنّ المكتوب نوعان:

النوع الأول: مكتوب في صحف الملائكة، وهذا المكتوب والمقدّر يمحو الله ما يشاء منه ويثبت.

النوع الثاني: مكتوب في اللوح المحفوظ، وهذا لا يتغيّر ولا يُبدّل، قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ

---

(١) الشريعة (ص٢٣٠).

(٢) فتاوى شيخ الإسلام (٧/ ٣٨٢).

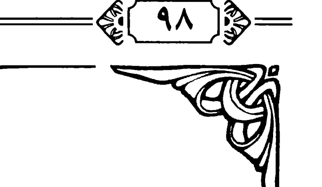
وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرّعد: ٣٨، ٣٩]: فالأقْدار التي في صحف الملائكة يَنْسخُ اللهُ ما يشاءُ منها ويُثبتُ منها ما يشاءُ.

وقد نقل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أحد العلماء أنه قال في قول النبي ﷺ: «**من أحب أن يبسط له رزقه وينسأ له في أجله، فليصل رحمه**»: المكتوب عند المَلك الموكل به غير المعلوم عند الله عَزَّوَجَلَّ، فالأول يدخل فيه التغيير.

ثم شرح هذا الكلام فقال: المعاملات على الظواهر، والمعلوم الباطن خفي لا يُعَلّق عليه الحكم، فذلك الظاهر الذي اطلع عليه الملك هو الذي يدخله الزيادة والنقص والمحو والإثبات.

والحكمة فيه إبلاغ ذلك إلى المكلف ليعلم فضل البر وشؤم القطيعة.





[كيف تتعامل مع أمرٍ تستغربه من أمور الدين والغيب وصعب عليك اسْتيعابه؟]

إذا أتيت على أمرٍ تستغربه من أمور الدين والغيب، وصعب عليك اسْتيعابه: فتعامل معه بتسلسلٍ وتحليلٍ منطقيٍّ، فحينها يسهل عليك فهمه واسْتيعابه.

وخذ هذا المثال: هب أننا رجعنا للوراء مائتي سنة، فقلت لك: سأريك الآن شيئًا في يدي يعرض لنا ما يحدث في الجهة المقابلة لنا من الأرض، وسأتحدث مع أناسٍ هناك، فهل ستصدق؟

- لا

ولكن لو بدأت معك بالتسلسل والتحليل المنطقي، فقلت لك: بأنه بعد عشرين سنةً سيكتشف العالم نفطًا يصنعون منه طاقةً تولد كهرباء، ثم بعد ذلك سيخترعون جهازًا يُسمَّى الهاتف، تضعه على أذنك فتخاطب الآخرين عبر أسلاكٍ ممتدَّة، ثم بعد ذلك سيخترعون جهازًا يلتقط الصور الطبيعية، وينقل كل شيءٍ بشكلٍ مباشر، ثم تزداد الاختراعات، حتى يخترعوا جهازًا هاتفيًّا له قدرةٌ على تصوير ما حولك، وتستطيع من خلاله أن تتحدث مع جميع الناس بأي مكان..

فهل مع هذا التسلسل المنطقي ستتقبل الكلام السابق؟

- نعم.

وهكذا إذا أخذت ما تستبعده بهذه الطريقة فإنك ستراه سهلًا مقنعًا.

وخذ مثالًا لما يسْتشكله كثير من الناس من القضاء والقدر: عندما تقول بأنَّ الله كتب عليّ كلّ شيءٍ، فمعناه أني مجبورٌ على عملي وعلى ما أرتكبه من المعاصي، وليس لي اختيار، فكيف يُعاقبني على شيءٍ كتبه عليّ؟!

وهذا الاستشكال قد وقع عند كثير من الناس بسبب عدم أخذهم هذا الأمر بطريقةٍ تسلسليّة منطقية.

فإليك التسلسل بكل سهولةٍ ووضوح: أليس الله تعالى الذي خلقنا وخلق كلَّ شيءٍ، والذي يعلم السر وأخفى: يعلم ما سوف نعمله من أعمالٍ صالحةٍ أو سيئة؟ بلى، فإذا كان يعلم ذلك: أليس الذي يعلم ما سيحدث في المستقبل قادرٌ على كتابة علمه؟ بلى، ولذلك يقول محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: ما ينكر قومٌ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلِمَ شيئًا فكتبه؟

فقد عَلِمَ ـ سبحانه ـ ما سيكون فكتبه وأملاه في اللوح المحفوظ، وليس معنى كتب: أوجب وألزم، بل: أملى علمه، فإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قادرًا على علم ما سيكون أليس قادرًا على كتابة علمه؟

فأيُّ علاقةٍ بين هذا وبين إجبارك على المعاصي والعمل؟

فمثلا: علم أنك ستذهب إلى مكان كذا، ثم ستشتري خمرًا، ثم ستدخل محلًّا وستسرق، فكتب علمه ذلك في اللوح المحفوظ، فهل في هذا ما يُخالف العقل؟.

وخذ مثالًا لما يسْتشكله بعض الناس من عذاب ونعيم القبر، وكيف يكون ونحن لا نرى أثرًا عليه؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والنائم يحصل له في منامه لذة وألم، وذلك يحصل للروح والبدن، حتى إنه يحصل له في منامه من

يضربه، فيصبح والوجع في بدنه، ويرى في منامه أنه أُطعم شيئًا طيبًا، فيصبح وطعمه في فمه وهذا موجود.

فإذا كان النائم يحصل لروحه وبدنه من النعيم والعذاب ما يحس به والذي إلى جنبه لا يحس به حتى قد يصيح النائم من شدة الألم، أو الفزع الذي يحصل له ويسمع اليقظان صياحه، وقد يتكلم إما بقرآن، وإما بذكر، وإما بجواب.

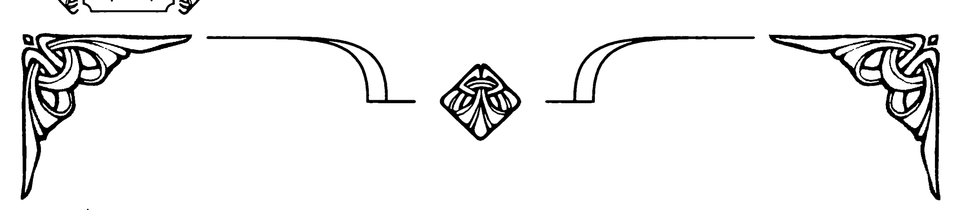
واليقظان يسمع ذلك وهو نائم عينُه مُغْمَضةٌ، ولو خُوطب لم يسمع، فكيف يُنْكَر حال المقبور الذي أخبر الرسول ﷺ أنه يسمع قرع نعالهم، وقال: «**ما أنتم أسمع لما أقول منهم**»(١)

ولا يجوز أن يقال: ذلك الذي يجده الميت من النعيم والعذاب، مثلما يجده النائم في منامه، بل ذلك النعيم والعذاب أكمل وأبلغ وأتم وهو نعيم حقيقي وعذاب حقيقي، ولكن يذكر هذا المثل لبيان إمكان ذلك. اهـ(٢)

فهذا قياسٌ وتسلسلٌ منطقيٌّ مُقنعٌ جدًا.



(١) رواه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٧٦).



[لا تجعل عقّلك يخوض في البحث عن ذات الله وكيفية صفاته تعالى]

كل عضوٍ من أعضائك إذا حمّلته فوق طاقته فسد، وكذلك دماغك، فإذا جعلته يخوض في كلّ شيء فقد حمّلته فوق طاقته، وسوف يفسد عمله، ويتعطّل تفكيره السليم.

فإياك أنْ تجعله يُفكرّ فيما لا يحتمله، ولو فكر فيه لاضطرب، كالتفكير في ذات الله تعالى، فكيف تفكّر في أمرٍ لا يُمكنك التوصل إليه بحواسك أو بنصوص صحيحة عن الرُّسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؟

وهل أنت تفكّر في كيفية إجراء مكالمة صوتية أو مرئية مع صاحبك الذي يبعد عنك آلاف الأميال؟

هل تمتنع عن الاتصال به حتى تقف بنفسك على كيفية ذلك؟ وهل تساءلت يوما عن كيفية سماع صوته ورؤيته بضغطة منك على زرّ فقط، وهل الهواء نقل صوته وصورته وكلامه؟

قال بعض الحكماء: «لا ينبغي لعاقل أن يعرض عقله للنظر في كل شيء، كما لا ينبغي أن يضرب بسيفه كل شيء».

ووالله لو مكثت سنوات لتقف بنفسك وحواسك على كيفية ذلك لَمَا استطعت، فلماذا تظل تتساءل عن ذاتِ الله العليّ الأعلى؟

ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال:**

خَلَقَ اللهُ الخلْق، فمن خَلَق اللهَ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله»(١)

وقال ﷺ: «**يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك، فليستعذ بالله ولينته**»(٢)

وقد وجد الصحابة رضي الله عنهم في نفوسهم مثل هذا، فجاؤوا إلى النبي ﷺ فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»(٣)

أي: أن دفعكم لهذا الوسواس الشيطاني دليل على كمال إيمانكم بالله تعالى.

وكذلك لا يحق لعقلك أن يخوض في صفات الله تعالى، بل الواجب عليك أنّ تُؤمن بأنّ لله صفات تليق به، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تشبيه ولا تمثيل.

قال القرطبي المالكي رحمه الله: إن هؤلاء المتكلمين قد ارتكبوا أنواعا من المحال لا يرتضيها البُلْه، ولا الأطفال لما بحثوا عن تحيز الجواهر، والأكوان والأحوال.

ثم إنهم أخذوا يبحثون فيما أمسك عن البحث فيه السلفُ الصالح، ولم يوجد عنهم فيه بحث واضح، وهو كيفية تعلقّات صفات الله تعالى، وتقديرها، واتخاذها في أنفسها، وأنها هي الذات أو غيرها، وأن الكلام هل هو متحد أو منقسم..

إلى غير ذلك من الأبحاث المبتدعة التي لم يأمر الشرع بالبحث

---

(١) رواه البخاري (٧٢٩٦)، ومسلم (١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٣) رواه مسلم (١٣٤).

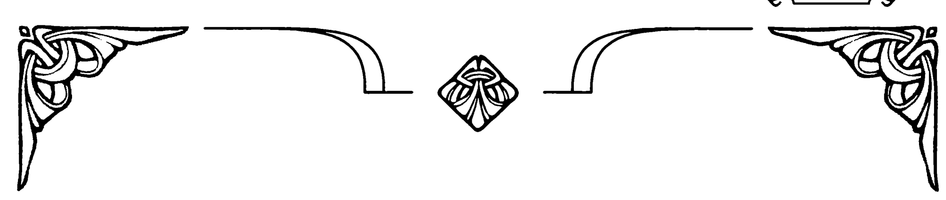
عنها، وسكت أصحاب النبي ﷺ ومن سلك سبيلهم عن الخوض فيها؛ لعلمهم بأنها بحث عن كيفية ما لا تعلم كيفيته؛ فإن العقول لها حدٌّ تقف عنده، وهو العجز عن التكييف لا يتعداه، ولا فرق بين البحث في كيفية الذات وكيفية الصفات، ولذلك قال العليم الخبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولا تبادر بالإنكار؛ فإنك قد حُجبت عن كيفية حقيقة نفسك مع علمك بوجودها، وعن كيفية إدراكاتك، مع أنك تدرك بها، وإذا عجزت عن إدراك كيفية ما بين جنبيك، فأنت عن إدراك ما ليس كذلك أعجز.

وغاية علم العلماء وإدراك عقول الفضلاء أن يقطعوا بوجود فاعل هذه المصنوعات منزه عن صفاتها، مقدس عن أحوالها، موصوف بصفات الكمال اللائق به.اهـ[1]



(١) المفهم (٦/ ٦٩٠ ـ ٦٩٤).



[نماذج من المشاهير المثقفين الذي أنهوا حياتهم بالانتحار بسبب تلوّث عقولهم وضيق صدورهم]

العقل ضعيفٌ لا يتحمَّل أنْ يستوعب شيئًا فوق قدراته، وقد قال بعض الحكماء: من لم يحترز بعقله من عقله هلك بعقله.

وهذا كلام في غاية الحُسن(١)

فلو رجعنا للمثال السابق، وهو أنه لو قيل لرجلٍ قبل مِائتي سنة: سنريك الآن شيئًا نضعه في أيدينا يعرض لنا ما يحدث في الجهة المقابلة لنا من الكرةِ الأرضيةِ، وسنتحدث مع أناسٍ هناك، فهل سَيُصدِّقُ ذلك؟ لا يمكن، وسيراه من المحال، ونحن نراه الآن من البَدَهيَّات، فإيَّاك أنْ تسمحَ لعقلك أنْ يتشرَّب كلَّ شيءٍ، فلقد رأينا من فعل ذلك أصابته أمراضٌ نفسية، ووساوس قاتلة، أدَّت بكثيرٍ منهم إلى الانتحار، إنها نهايةٌ طبيعيةٌ لمن أعرض عن دين الله وشرعه الذي هو المناسب لطبيعة البشر.

وخذ أمثلةً لمشاهير المثقفين الذي أنهوا حياتهم بالانتحار:

١ ـ **إسماعيل أدهم**: وهو كاتب مصري حصل على الدكتوراة في علوم الرياضيات من روسيا، صاحب كتاب: (لماذا أنا ملحد)، انتحر عام ١٩٤٠م.

٢ ـ **تيسير سبول**: وهو روائيٌّ أردنيٌّ، له رواية (أنت منذ اليوم) انتحر قبل بلوغه سنّ الأربعين.

---

(١) الآداب الشرعية (٢/ ١٣٥).

٣ ـ **أروى صالح**: وهي كاتبةٌ مصريةٌ وناشطةٌ سياسيةٌ.

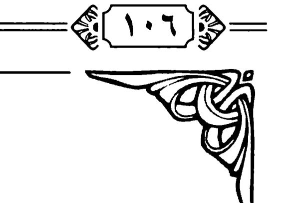
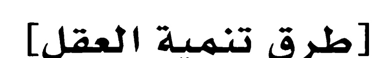
٤ ـ **عنايات الزيات**: وهي كاتبةٌ وناشطةٌ مصرية.

٥ ـ **أرنست همنغواي**: وهو الكاتب الروائيُّ الأمريكي المشهور، فائز بجائزة نوبل العالمية، مات برصاصة من بندقيته أطلقها على نفسه.

وغيرهم كثير، وأنت لست أذكى ولا أكثر ثقافةً منهم.

وصدق الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].



[طرق تنمية العقل]

تقدّم أنّ العقل نوعان:

أحدهما: عقل بالفطرة، حيث ينشأ بعض الناس منذ صغره عاقلًا فطنًا، محبًّا بفطرته لفضائل الأمور نافرًا عن رذائلها.

والثاني: عقل مُكتسب، حيث ينشأ بعضُ الناس قليلَ الحكمة، شرس الطباع، تميل كثير من أقواله وأفعاله إلى الطيش والحمق والسّفه، ثم يبدأ بعد ذلك بتنمية عقله عن طريق التجربة والخبرة، ومُجالسة العقلاء أو قراءة سيرهم، وربما فاق عقلا وذكاء وحكمة وحنكة وأدبًا من كان عاقلًا بالفطرة.

وإليك ـ أخي القارئ ـ خمس وصايا تُعينك على اكتساب العقل وتنميته:

*** الوصية الأولى: التمسك بالدين الحنيف، وتطبيق تعاليمه، والإيمان التام بما جاء فيه.**

فالإيمان بالله تعالى وشرعه والعمل به أحسن وأفضل وأسرع طريق لاكتساب الفِطْنَة والذكاء ووَفْرةِ العقل.

قال الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: «الإيمان يزيد الفِطْنَة؛ لأنَّ أصول اعتقاده مبنيَّة على نَبْذ كلِّ ما من شأنه تضليل الرَّأي، وطمس البصيرة». اهـ[1]

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٧٥).

* **الوصية الثانية: قراءة القرآن الكريم بتدبّر وتأمل،** فالقرآن أفضل وأقوى وسيلة لتقوية العقل وتنميته؛ إذ يحدد له المسار الصحيح في التفكير والتأمل، بخلاف من لم يهتد بنور القرآن، فإنه يسلك بعقله كل مسلك، ولو كان فيه تلفه.

ومثل العقل والقرآن، مثل السيارة والعلامات الإرشادية في الطرق المزدحمة الكثيرة والمتقاطعة، فمن قاد سيارته دون النظر والاهتداء بالعلامات الإرشاديّة ضاع وضلّ الطريق، وربما سلك طريقًا خطيرًا تكون نهايته هوّة من رأس جبل.

وكذلك من أعمل عقله دون النظر والرجوع للقرآن ـ الذي نزل لأجل صلاحه ـ: ضاع وتخبّط، وسلك طرق الضلالة والردى.

* **الوصية الثالثة: تأمل سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه الكرام رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان، والنظر في تعاملهم وأخلاقهم، ومعرفة أحوالهم وأقوالهم؛** فهم أعقل الناس ولا ريب، ومن قرأ للعقلاء والحكماء تطبع بطباعهم، وتشبّه بأخلاقهم، فأثّر ذلك على عقله.

قال ابن القيم رحمه الله: «إن أعقل الخلق على الإطلاق الرسل، وأتباعهم بعدهم أعقل الأمم، وأهل الكتاب والشرائع الكبار أعقلهم، وأعقل هؤلاء المسلمون، وأعقل المسلمين أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون لهم بإحسان، وأهل السنة والحديث أعقل الأمة بعدهم على الإطلاق.

والبرهان القاطع على هذا: أنه قد ظهر على أيدي الرسل من العلم النافع والعمل الصالح ومصالح الدنيا والآخرة ما لم يظهر مثله ولا قريب منه ولا ماله البتة نسبة بوجه من الوجوه على أيدي غيرهم من العقلاء، ومن تدبر سيرتهم في أنفسهم وفي خاصتهم وفي العامة، وصبرهم

وزهدهم في الدنيا ورغبتهم في الله وما عنده، واشتمالهم من الأخلاق على أزكاها، ومن الشيم على أرضاها، وأنهم أصدق الخلق وأبرهم قلوبا، وأزكاهم نفوسا، وأعظمهم أمانة، وأكرمهم عشرة، وأعفهم ضمائر، وأطهرهم سريرة، لم يشك أنهم أعقل خلق الله على الإطلاق، ولا ريب أن كل من كان إليهم أقرب كان حظه من العقل أوفر، والعلوم والأعمال والسيرة والدلائل على ذلك، وأما أعداؤهم وخصومهم فقد ظهر من نقصان عقولهم ما كان الحيوان البهيم أحسن به حالا منهم»[١]

* **الوصية الرابعة: مجالسة العقلاء ومخالطتهم**؛ فإن ذلك من أعظم ما يُكسب العقل وينمّيه، ويُقيم أوَده، ويشفي سَقَمه، ويُصلح عِوَجه.

* **الوصية الخامسة: الحرص والسعيُ إلى اكتساب الأخلاق**، فإنّ منع النفس من شهواتها وغضبها يبني العقل بناء محكمًا.

فإذا عوّدت نفسك على شيء اعتادت عليه وأَلِفَتْه.

تعوَّدْ فِعَال الخير دأبًا فكلَّما   تعوَّدَهُ الإنسانُ صار له طَبْعًا

وقد قال أهل الطب: إنّ المخّ يعطي إشارات للجسم إذا كان قد اعتاد على فعل شيء، كالغضب أو العبوس عندما يتضايق من شيء، أو الجبن عند مواجهة ما يُخاف منه، فيشعر الإنسان بتعلّقٍ ورغبةٍ شديدة في ذلك الوقت للقيام بالأمر الذي اعتاده؛ نظرًا لإشارات المخ الملحّة، فإذا صبر على ترك العادة قلَّتْ إشارات المخ يومًا بعد يوم، فانفك البدن عن هذه الرغبة الملحّة، فأصبح بعد شدة الغضب حليمًا، وبعد العُبوس بَشُوشًا، وبعد الجبن شجاعًا.

وأثبتت الدراسة الحديثة أنَّ خلايا المخ تقوم بعملية ربط الأفعال

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٤/ ١٥١٥ ـ ١٥١٦).

لتُشكل عادة معينة، ووجد الباحثون أنَّ هناك منطقةً في المخ هي المسؤولة عن اتخاذ القرارات وتشكيل العادات.

وأثبتوا أنّ هناك مجموعةً من الإشارات العصبية تنتقل في صفٍّ واحد، عبر مركز اتخاذ القرارات في الدماغ، وتتجمع لتتحول إلى أفعال تلقائية، وهي التي تسمى (عادات).

لكن عندما يتحول ذلك الأمر إلى عادة لا يطلق المخ تلك السلسلة من الإشارات العصبية، بل يطلق إشارة عصبية واحدة في بداية فعل العادة، وإشارة عصبية واحدة عند الانتهاء من فعل تلك العادة؛ لتُنَبِّه بانتهاء فعل تلك العادة المطّردة.

وقالوا: إنّ كسر العادات قد يكون أمرًا مرهقًا ومتعبًا في بداية الأمر؛ لأن المخ قد اعتاد على تصرفٍ معين، تتحكم فيه الإشارات العصبية في المخ.

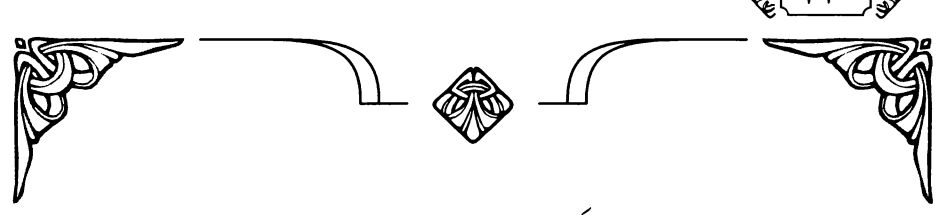
فاحرص على التخلّق بالأخلاق الحسنة، وترك الأخلاق السيئة، وسوف تعتاد على ذلك ويسهل عليك بمشيئة الله تعالى وعونه.

والناس يستدلُّون على عقل الرجل بحسن أخلاقه، وعلى حمقه وقلة عقله بسوء أخلاقه.

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللهُ: «إن محبة المرء المكارم من الأخلاق وكراهته سفسافها هو نفس العقل»(١)



(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص١٦).



[متى يُفضَّل الجهل على العلم؟]

لا شكّ أنّ العلم أفضل من الجهل، وأنّ العالم أفضل وأكمل من الجاهل، ولكنّ الجهل يُحمد ويُفضَّل على العلم لرجلين:

* **الأول: أحمق ضعيف العقل**، جعل العلم سلّمًا للتكبر على الناس، والشهرة، والتسلّط والاستعلاء على الآخرين، وازدرائهم، وحسد من هم أعلم منه، وأكثر قبولا منه عند الناس.

* **الثاني: صاحب هوى**، جعل العلم سلّما لنيل شهواته وحظوظه الدنيئة وترويج بدَعِه وآرائه السقيمة، وأفكاره المنحرفة.

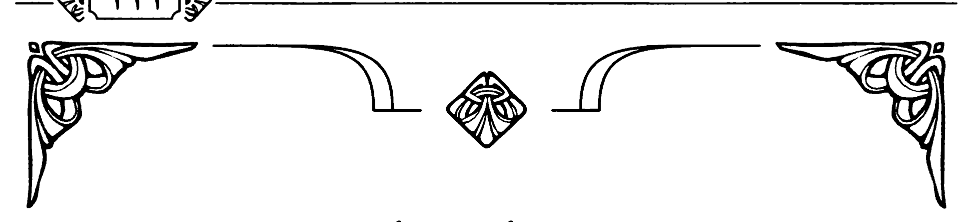
فالجهل في حق هؤلاء أسلم لهم وللناس، وأستر لحمق الأحمق، وضلال صاحب الهوى.

قال الشعبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن هذا العلم لا يصلح إلا لمن فيه عقل ونُسُك(١)، فاليوم يطلبه من لا عقل له ولا نُسُك فيه»(٢)



(١) أي: عبادة وصلاح قلب.

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/ ٣٢).



[التفكير الصحيح من أعظم أسباب جلب السعادة وتجنّب تأثّرنا بأخطاء الناس]

كثير من الأمور التي تحصل في هذه الحياة، وكثير من تصرفات الناس ليست في حدّ ذاتها جيّدة أو سيّئة، وتسرُّنا أو تُحزننا، إنما طريقة تفكيرنا تحدّد الجيد من السيّئ، والسارّ من المحزن.

وهناك صفاتٌ متى اتّصفت بها فاعلم أنّ طريقة تفكيرك مشوَّهة وخاطئة، فاجتهد في التخلّص منها، هي:

* **الصفة الأولى**: كثرة انتقادك لنفسك على إخفاقاتك السابقة، وتعثراتك في حياتك.

* **الصفة الثانية**: تشكيكك في قدراتك ومهاراتك.

* **الصفة الثالثة**: خوفك من الأحداث المستقبلية.

* **الصفة الرابعة**: كثرة توقعاتك الفشل في الأمور التي تسعى لتحقيقها.

وقد قال أهل الاختصاص: «إن الدماغ الذي يشعر بالتوتر لا يُمكن السيطرة عليه».

وصدق من قال: لا تُحاول أن تفرش الأرض بالسجاد، بل اشتر زوجًا من الأحذيّة.

ومعنى هذا: أنك مهما سعيت وتمنيت وحاولت أن تصلح من أخلاق الناس وطباعهم فلن تتمكن، ولكن أصلح أخلاقك وطباعك أنت، وأحسن طريقة تفكيرك تجاه أخطائهم.

وكما أنّه لا حياة للبدن بدون التنفّس، فلا حياة للعقل بدون التفكّر، ولا حياة للروح بدون همّة وعزم، ولا حياة للبدن والعقل والروح بدون إيمان بالله تعالى ويقين به، فإنّ فيه قِوام ونعيم وسرور وحياة الإنسان كلّه، ظاهره وباطنه، في دينه ودنياه.

والسبب في اضطرابك وقلقك واكتئابك ليس راجعًا إلى الأحداث التي تحصل في حياتك، بل السبب وراء ذلك ردود أفعالك التي تستند إلى معتقداتك ونمط تفكيرك.

وخذ هذه القاعدة النافعة: افْعَل الشيء الذي تخشاه، وبذلك يُصبح موتُ الخوفِ مُؤكّدًا.

وستدرك ما تريد ـ بعد توفيق الله ـ، وتجتنب كل ما يُضايقك بحسن إدارتك لتفكيرك.

فتستطيع ـ بإذن الله تعالى ـ إدراك الكثير من الخير والسعادة والراحة ورغد العيش بحسن إدارتك لتفكيرك، بحيث تركز على الفأل، وحُسْن التعامل، ومُداراةِ أقاربك وأهلك وأصدقائك وكل من تقابل، وتغافلِك عن زلاتهم، ومراعاة مشاعرهم، وتجنّب إثارة ما يُغضبهم وينفرّهم عنك.

وتستطيع تجنب ما يُكدرك من سوء أخلاق الناس بحسن إدارتك لتفكيرك، بحيث تُقنع نفسك أنّ كلامهم لا يستحق أن يُغْضَب له، وأن تحرص على العفو والصفح والتجاهل والمداراة والتغافل.

وأعطي مثالا لذلك:

رجلان سافرا سويًا، فجاءت امرأةٌ فقالت لزوجتيهما: لقد ذهبا ليتزوجا عليكما، وجاءت بأدلة كاذبة على ذلك، فلما قدما ليلًا ودخل كل واحد على زوجته سمعا منهما كلامًا بذيئًا وتهجُّمًا شرسًا وسبًّا

مُقْذعًا، فما خرج الصبح حتى طلّق أحدهما زوجته، والآخر قد نام معها بحبّ ووئام، فما الفرق؟

الفرق هو أنّ **الأول**: فكّر في كلامها تفكيرًا سلبيًّا، حيث رأى أنه إهانة له، وأن كلّ ما قالت هو محضّ افتراء وحقد، فما زال يرد السَّبَّ بسبٍّ أشدّ، ويصدّ الهجوم بهجوم أعنف حتى ضربها وطلّقها، وأفسد بيته، وهدم علاقته.

وأما **الآخر**: ففكّر في كلامها تفكيرًا إيجابيًّا، حيث رأى أنّ هناك سوء فهم منها، يتطلّب حوارًا ونقاشًا؛ ليتوصّل من خلاله إلى كذب من أخبرها بهذا الخبر، فما زال يُحاورها بهدوء، ويحتمل كلامها القاسي، مقنعًا نفسه أنّ كلامها نابعٌ عن شدة غيرتها وحبها له، فعذَرَها، فأخبرته بكلام تلك المرأة، فأقسم لها أنها كاذبة، وبيّن لها بالأدلة كذبها، ولا زال يُسمعها الكلام الجميل حتى رضيت وتأسفت على ما صدر منها، ونام معها أحسن نوم في حياته.

فانظر إلى اشتراكهما في أصل المشكلة، وتباينهما في طريقة التفكير تجاهها، مما أدى إلى هدم الأول لحياتِهِ مع زوجته، ودوام عشرة الثاني معها.

والأمثلة في هذا الموضوع أكثر من أن تُحصَر.

وكل هذا يتطلب منك مزيدًا من إعْمال فكرك ونظرك، وسيكون هذا تكلّفا منك في البداية، ولكنه سيكون طبعًا فيك مع مرور الوقت إن شاء الله تعالى.

وهناك طريقان للنظر إلى الأخطاء:

* **الطريق الأول**: **انتقاد الأخطاء.**

* **الطريق الثاني**: **انتقاد نفسك بسبب أخطائك.**

وهناك فرق واضح بينهما، والصواب هو الطريق الأول، فيجب أن

ينصب التركيز على الخطأ وليس عليك أنت شخصيا، حتى تتجنب استهلاك طاقتك الانفعالية، والحرمان من الاستفادة من أخطائك.

عندما سئل توماس أديسون مخترع المصباح الكهربائي عن شعوره بعد أن أخفق سبعمائة مرة، أجاب: «أنا لم أخفق ٧٠٠ مرة، أنا لم أخفق ولو لمرة واحدة، لقد نجحت في إثبات أن هذه الطرق لا تصلح، وعندما أسْتبعد كلّ الطرق التي لا تصلح فسوف أجد الطريقة التي تصلح».

فالخطأ بعد الاجتهاد في تحرّي الخير والصواب ليس عيبًا وليس فشلا، بل هو طريقٌ يوصل إلى النجاح في النهاية في الغالب، لمن وفّقه الله تعالى وأبعد عن نفسه الشعور بالإحباط والخوف من انتقاد الناس.

وإليك بعضًا مما جاء في أحد كتب المتخصّصين الغربيين(١):

١ ـ إننا نفكر في المتوسط فيما بين ستين إلى ثمانين ألف فكرة كلّ يوم.

وإذا كنا نحن المسؤولين عن صناعة الأفكار فنحن مسؤولون عن تغيير هذه الأفكار نفسها وقادرون على ذلك.

٢ ـ لكي تغيّر حياتك فكل ما عليك فعله هو أن تغيّر طريقة تفكيرك.

الأمر الذي لا يقبل الشك هو أنك كلما وجّهت المزيد من الاهتمام للأفكار التشاؤمية ازدادت حالتك الانفعالية سوءًا؛ لأن المشاعر تتبع الأفكار.

٣ ـ تتشكل شخصيتك من خلال تفكيرك.

---

(١) وهو كتاب «قوة العقل» لجيمس بورج.

٤ ـ لا يمكن أن ينتابك شعورٌ بدون فكرة وراءه.

وإليك تجربةٌ لتوضيح هذا:

هل تستطيع أن تُحاول الشعور بالحزن دون التفكير في بعض الأفكار المحزنة؟

وهل تستطيع الآن أن تحاول الشعور بالغضب دون التفكير في بعض الأفكار التي تُثير الغضب بداخلك؟

٥ ـ أفكارك هي المسؤولة عن مشاعرك، فالأفكار التفاؤلية والمبهجة تجعلنا نشعر بأحاسيس متفائلة ومبهجة؛ أي: ينتابنا شعور جيد.

أما الأفكار التشاؤمية والسلبية، فتجعلنا نشعر بأحاسيس متشائمة ومحبطة.

فأيٌّ من الخيارين يجب أنْ نسعى إلى تحقيقه؟

ليست هناك حاجةٌ للتفكير في الإجابةِ عن هذا السؤال.

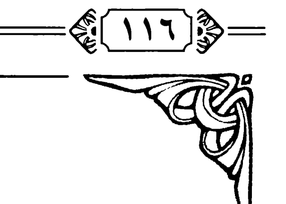
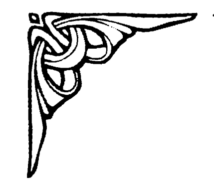
وهذا يفسّر لنا كيف يُمكن أنْ نرى شخصين في الظروف السلبية نفسها تمامًا، ويستجيب أحدهما بطريقةٍ أفضل من الآخر، ويرجع هذا إلى الطريقة التي يختارها كلاهما للتفكير في ظروفهم.

٦ ـ ليست الأحداث أو المواقف هي التي تُولّد المشاعر، بل إنَّ ردود الأفعال تجاه المواقف هي التي تنطوي على الأفكار التي تولّد المشاعر.

إنك تصنع أفكارك بنفسك، فإذا كنت تفكر بأفكار كئيبة أو مخيفة أو غاضبة فأنت في الحقيقة تضرّ نفسك.

إنّ القوة الموجودة تكمن في عقلك أنت، فأنت من يصنع أفكارك.

إنّ أفكارك لا تملك القوة على إيقاع الضرر بك إلا إذا أعطيتها أنت هذه القوة.

[مهاراتُ تَحْسينِ الذَّاكرةِ](١)

قوة الذاكرة، وجودة استحضار المعلومات والمحفوظات مطلب لكل إنسان، وأركانُ التذكُّر سهلةٌ جدًّا، وهي ثلاثة فقط، وكل ما يسمى بجهاز الذاكرة يقوم على هذه الأركان:

[١] التَّرْكِيز.

[٢] التَّكْرَار.

[٣] تَرَابطُ الأفْكَار.

أولًا: التَّرْكِيز:

إنَّ أوَّلَ رُكْنٍ لِلْذَاكِرَةِ هُوَ: الحصول على تصوّر راسخ واضح عن الشيء الذي ترغب في تذكره، ومن أجل القيام بذلك يجب أنْ تركز تفكيرك في الموضوع الذي تريد طرحه والتحدث عنه، أو في الشيء الذي تريد حفظه وفهمه.

إنّ خمس دقائق من التركيز الشديد تسفر عن نتائج عظيمة أكثر من قضاء عدة أيام في التأمل.

فحينما يأتيك ثلاثة من الرجال ويُعرّفونك بأنفسهم، فتنسى اسم واحد منهم بعد دقيقتين، فليس السبب من ضعف ذاكرتك، بل من ضعف تركيزك واهتمامك بهذا التعريف.

---

(١) يُنظر: «فن الخطابة» لدايل كرنيجي (ص٥٣ ـ ٦٠)، مع التصرف.

«وقد أظهرت جميع الدراسات العلمية أنّ مجرد محاولة أداء شيئين في الوقت نفسه يؤدي إلى فقدان التركيز على كلتا المهمتين، ويؤدي هذا إلى التذكر الذي تشوبُه العيوبُ.

فبدون التركيز والانتباه الكامل لن تصل المعلومات إلى مرحلة الذاكرة طويلة المدى.

فالمهام المتعددة هي عدوٌّ الذاكرة»[١]

ثانيًا: التَّكْرَار:

باستطاعتك أن تتذكر كمية كبيرة من المعلومات إذا كررتها جيدًا، فلذا أعد وكرّر المعلومات التي تريد أن تتذكرها.

واستخدم الكلمات والمعلومات الجديدة في حديثك، وادع الغريب باسمه إذا أردت أنْ تتذكره.

ثالثًا: تَرَابطُ الأفْكَار:

إنّ سر الذاكرة الجيدة هو تكوين عدة أفكار مترابطة.

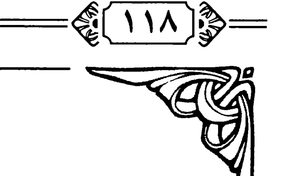
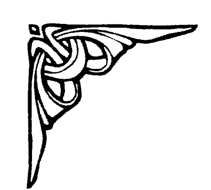
قَالَ أحَدُ الكُتَّابِ: كنتُ أستظهر المحاضرات غيبًا في كل ليلة، وكان علي في كل ليلة أن أستعين بصفحة من الملاحظات كي لا أرتبك، وكانت الملاحظات تتألف من بدايات الجمل من المحاضرة..

ثم اكتشفتُ وسيلة أخرى للحماية، فحفظتُ أول الأحرف غيبًا.

بعد ذلك خطرت لي فكرة الصور، فتلاشت مشكلاتي، وخلال دقيقتين رسمت بقلمي ست صور قامت بعمل الجمل الرئيسية تمامًا، ثم رميت بالصور بعدما رسمتها؛ لأنني تأكدت أن باستطاعتي إغلاق عيني ومشاهدتها في أي وقت.

---

(١) قوة العقل، جيمس بورج (ص٢٣١ ـ ٢٣٢).

[طرق تنشيط الدّماغ]

الدماغ كغيره من الأعضاء ينشط ويضعف، على حسب العوامل المؤثِّرة عليه، ومما يعين على تنشيطه وقوته أمران:

* **الأمر الأول: قطع العادات أو تغييرها؛** لأنّ اعتيادك على أفعال تفعلها وتكررها يُصيب الدماغ بالركود، بسبب قلّة عمله، ولكن حينما تحرص على تغيير عاداتك تُربكه وتنشّطه، وهذا يزيده جودةً وقوة.

* **الأمر الثاني: الاعتماد عليه ـ بعد الله ـ في التذكر والتأمل والحديث أمام الآخرين.**

وهناك تشابهٌ بيْنَ الدّماغ وبيْنَ خزَّانِ ماءٍ كبير له صنبورٌ عفا عليه الزَّمنُ، فكثُرتْ فيه الطَّحالبُ والأوساخ، ومَن رآه مِن الخارجِ ظنَّه سليمًا؛ لأنَّ العيبَ في المجْرى الدَّاخلي لا في ذاتِ الصنبور، فإذا احتاج أحدٌ للشُّرب مِنْه لا يكادُ يخرُج مِنْه الماء، فيظنّ أنّ الخزَّان قد نَضَبَ عنه الماء، والعيبُ ليس في الخزَّان ولا في الصنبور.

وكلّما كثُر استعمالُ الصنبورِ اتَّسعَتْ الفتحةُ ودرَّ الماء، فروي الشَّارب، وإذا أزيل ما فيه من الشَّوائب خرجَ مِنْه الماءُ الغزير الذي يروي الجماعات مِن النَّاس، واتصل الصنبور بالخزَّان وحسُنت العَلاقةُ بينَهُما بعْدَ ما كانَتْ هناكَ فجْوة.

وَهَكَذَا الدّماغ وَاللّسَانُ وَالرَّابِطُ بَيْنَهُمَا، فأدمغتنا مليئةٌ بالعِلْم والكلمات والعبارات والأدلة والتجارب، وألسنتُنا سليمةٌ، ولكنَّنا حينما

نريد الحديثَ أمامَ النَّاسِ لا يكادُ الدّماغ يفتح مغاليقه ويعطي دررَه وكنوزَه؛ لأنَّ اللسانَ لم يُعَوِّد الدّماغ جَلْبَ ما فيه، بل اللّسان يغرف من المكتوب، والرابط بينهما العين، فيظل الدّماغ مُعطّلا، واللسان خَرِبًا، والعيب ليس فيهما، بل في قِلَّة الصلة بينهما، فتعطلا جميعًا أو تعطّل أحدهما.

وكلما أكثرنا الحديثَ أمامَ النَّاسِ، وأعطينا اللّسانَ حقَّه في أنْ يغترف من الدّماغ ويتَّصل به: أزلنا الرواسبَ التي تمنعُ اللّسانَ مِن الاتصال بالدّماغ، وجَلَبَ ما فيه مِن الكنوز والدرر، وَحَسُنَتْ العَلاقةُ بينهما، وتصادقا بعد طول انقطاع، وإذا اصطلح اللسان والدّماغ أدى ذلك إلى قوةِ بيانٍ، وحسنِ منطق، وقدرةٍ على احتواء المواقف.

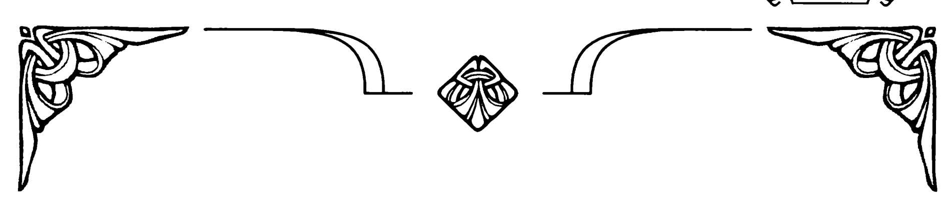
وكذلك كلما أتَحْنَا للدماغ أن يتأمل، وينظر، ويتفكّر، ويتدبّر، ولم نعتمد الاعتماد التام على غيرنا في فهم مسائل الدين، وأمور الحياة: تفجّرت منه ينابيع الفهم، والنظر الصحيح، والذكاء، والفراسة، وجودة الرأي.

وَقَدْ قِيلَ: إنَّ الذي يعتمد على ذاكرتِه تُلَبِّيه مُسْرِعةً.

فالدّماغ كغيرِهِ من الأعْضاءِ، يَقْوى بالتَّدرُّبِ والتّمْرينِ وطُولِ الممارسَةِ، فيسْهُلُ جَلْب الأدلَّةِ والعباراتِ منه عند الحاجةِ، حتَّى إنَّ الإنسان مع طُولِ المرانِ على الحديث والكلام يتفنَّنُ في اخْتيارِ العِباراتِ والكلماتِ والشَّواهِدِ دُونَ تَحْضيرٍ مُسْبَقٍ.







[العقل الواعي والعقل غير الواعي]

الإنسان يتصرف على حسب قناعاته، فمن اقتنع أن هذا الأمر صعب فسيكون صعبًا، وربما لن يتجاسر على فعله، ولو فعله فالغالب أنه يفشل، والعكس كذلك.

وقد قال أهل الاختصاص: **العقل نوعان:**

العقل الواعي والعقل غير الواعي؛ فالعقل الواعي: هو ما تُباشر العمل به في حياتك اليومية.

وأما **العقل غير الواعي**: فهو كل ما يُخزنه دماغك من التجارب التي خضتها على مرّ السنين، والأقوال التي تشرّبتها، والأفعال التي مارستها، والأخلاق والطباع التي اعتدت عليها، فتكوّنت عندك قناعاتٌ وأمورٌ مسلّمةٌ لا تقبل النقاش.

وللعقل غير الواعي تأثير كبير على قرارات العقل الواعي، فالإنسان يتصرف بناء على ما عايشه مسبقًا، وكل تجربة لها من التأثير ما لها عليه حتى وإن لم يُدرك ذلك عند اتخاذه لقرارات معينة.

فحينما تريد فعل شيء، ولنضرب لذلك مثلا: الحديث أمام الآخرين، ولم تكن قد تحدّثت قبل ذلك أمام الناس، فإنّك تجد رهبة وخوفًا، فما عليك إلا أن تُقنع نفسك أن الأمر سهل جدًّا، وأنك قادر على ذلك، ثم ابدأ بالحديث أمامهم، وكرر ذلك مرارا، حتى يصبح الأمر سهلا، وتزول الرهبة عنك تماما.

ومن رغب في القيام بأي عمل مهما كان صعبا عليه، فما عليه ـ بعد التوكل على الله ـ إلا أن يتقبّل الفكرة بمحبة وعزم على العمل بها، ثم تنتقل إلى عقله الباطن، وسوف يستجيب لها بقدرة الله ومعونته.

ولذلك احذر من اطلاق العبارات التي فيها تثبيط لك وتفتير لعزمك، مثل: لا أستطيع.. صعب.. مستحيل..

فإنّ عقلك الباطن يأخذ بكلامك ويتشرَّبه، ويظل الأمر صعبا عليك مهما حاولت واجتهدت إلا أن يشاء الله.

والأفعال والاعتقادات ناشئةٌ عن القناعات، ومتى تغيّرت قناعاتك تغيّرتَ أنت، وما لم تتغيّر قناعاتك لن تتغيّرَ ولو كنتَ من أعلم الناس وأكثرهم خبرة وتجربة.

أخبرني قريب لي أنه شعر يومًا بتسارع نبضات قلبه، وهيجانٍ في القولون، وأصبح لا يشتهي الطعام، ولا يكاد يأكل إلا وهو كاره، واستمر على ذلك عشرة أيام، وهو مقتنع أنه مريض في معدته، فذهب للطبيب وطلب فحصًا على معدته، فكشف عليها عبْر الأشعّة وأخبره بأنها سليمة، فلم يقتنع، وقال: أنا منذ عشرة أيام لا أشتهي الطعام وتقول لي سليمة!!

فأدخل الطبيب منظارًا في معدته وجعَلَه يرى غشاء معدتِه عبْر الشاشة، فلمَّا تيقَّن أنها سليمة شعر براحة عظيمة، وانفتحت شهيّته، وصادف حينها أنّ صديقًا له دعاه لتناول القهوة والإفطار.

قال: فذهبت إليه وأنا منشرح الصدر، فشربت من القهوة، وأكلت من طعامه وأكثرتُ منه، وأجد لتلك القهوة وذلك الفطور لذَّة إلى يومي هذا، وذهب عني ما أجد.

وأخبرني بأنَّ صاحبه حدَّثه عن ابن عمّه أنه يشكو من صداع شديد

في رأسه، ويأكل مسكنات كل يوم، ويقول: أجد ألَمًا في أعلى الرأس، بسبب دودة فيه، وأحسّ بها وبحركتها، فذهب به إلى الطبيب وأجرى على رأسه فحصًا على الأشعة فلم يجدوا فيها دودة، وأروه صورة رأسه، فقال: أنا أعْرَف بنفسي، وأشعر بها، فكيف أصدِّقكم؟

قال ابن عمه: فأخبرتُ أحد الأطباء بحالته، وطلبتُ منه أن يُجْري عليه أشعة ويبيّن بها أثر الدودة، فقلت لابن عمي: لقد جاء للمستشفى طبيبٌ خبير، وهو متخصّص في أمراض الرأس، ففرح وذهبنا إليه، فأجرى له أشعة، ووضع فيها من جهة أعلى رأسه أثرًا يُشبه الدودة، فأراه الصورة وأخبره بأنه سيجري له عمليّة لاستخراجها، ففرح! ووافق على ذلك، فقام بتخديره، ثم شقّ أعلى رأسه ثم خاطه، وبعد أنْ أفاق أخبره بنجاح العملية وأراه الدودة التي كان قد أحضرها ابن عمّه، ففرح واستبشر ثم قال: ألم أقل لكم أنها كانت في رأسي، وأن وجعه كان بسببها؟

ولم يشتك من رأسه بعد ذلك.

وأذكر أنّ فتاة كانت تشتكي من سقوطها في الطريق في كثير من الأحيان دون سبب، ومن حديث الجن معها، وتهديدِهم لها يقظةً ومنامًا، وآلامًا متنقّلة، وغضبًا يعتريها، وخوفًا وإغماءً لا تعلمُ سببَه.

فطلبتْ مني أن أقرأ عليها؛ ظنًّا منها أنَّ بها مسًّا من الجانّ.

فقرأت عليها برفق، واقتصرت على فاتحة الكتاب وبعض السور والتعاويذ المعروفة.

وبعد الانتهاء قلت لها: هل شعرت بشيء؟

قالت: لم أشعر بخوفٍ ولا ألمٍ ولا غيرِ ذلك.

فقلت: هذا دليل على أنك سليمة ولست مُصابةً بالجان أو العين.

ثم عَمِلْت على إقناعها بأنها ليست مُصابةً بمسٍّ ولا عين، وأنّ أعراضَ الوسواس وشدةَ الخوف كأعراض الصرع والمس أو أشد.

فإنّ الموسوس يتخيل أنَّ الجن تُخاطبه، ويعتقد ذلك اعتقادًا لا يقبل الشك، ويروي لك مواقف وقصصًا عن مُشاهداته لهم، وكلامهم له.

بل يصل الْمُصاب بالوسواس والخوف إلى حدّ المرض العضوي، فيسقط على الأرض دون شعور، ولا يعرف سبب ذلك، ويشعر بآلام تتنقل في بدنه، ويشعر بفرط الغضب والحنق وتقلُّب المزاج.

ونصحتها بعدّةِ أمورٍ، وقلت لها: أنا ضامن ـ بحول الله ـ أنك إنْ عملت بما قلت لك أنْ يزولَ عنك كلُّ ما تجدينه، وأنْ تري العافية والشفاء.

وبعد مُدَّةٍ مِن الزمنِ جاءتني وقالت: بعد تلك الجلسة زال عني كلُّ ما كنت أجده، فقد زال الخوفُ وذهبتِ الْآلام، ولم أسقطْ أبدًا مع كثرة المشي.

قلت: وأين الجن؟

فقالت: بعد ذهاب الخوف عني وقناعتي بأنّ ما أسمعه وأشعر به إنما هو وسواس وتخيُّلات: لم أسمع شيئًا، ولم تعد الأحلامُ تأتيني والحمد لله.

فانظر كيف مرض هؤلاء بسبب قناعتهم أنهم مرضى، وحينما غيّروا قناعاتهم بأنّ المرض قد زال عنهم شُفوا تمامًا.

وكما أنّ القناعة تؤثر على الصحة، فهي تؤثر كذلك على نظرة الإنسان للناس وللحياة.

أخبرني رجل أنه كان يجد ضيقًا وهمًّا شديدًا حينما يعزم على السفر إلى الرياض ـ عاصمة المملكة العربية السعودية ـ، وكانت مدينته

تبعد عن الرياض قرابة مائتين وخمسةٍ وعشرين كِيلا، قال: فمللت من هذا الهمّ الذي لا يُطاق، فعزمتُ على أنْ أغيّر قناعاتي بأنَّ السفر للرياض فيه مشقة، وجالبٌ للهمّ، وجعلت أقنع نفسي أن السفر سهل وممتع، وسأعتبرها نزهة.

قال: فزال همّي وغميّ عند السفر تمامًا، وقد مضى على ذلك بضع سنوات.

فإذا أردت أن تحسن أخلاقك وطباعك مثلا: فابدأ بقناعاتك، فإذا كنت تشكو من الغضب، فأقنع نفسك أنك ستكون حليمًا من اليوم، وتعامل مع الناس على أنك قد تغيرت وأصبحت حليمًا، فغيرك اسْتطاع فلم لا تستَطيع أنت؟

وأما إذا كنت مقتنعًا أنك سريع الغضب فلن تتغير مهما حاولت وتعلّمت.

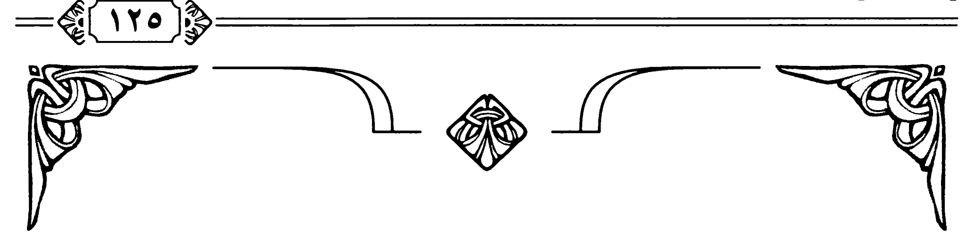
وافعل ذلك في كلّ خلق سيئ تشكو منه.

فمهما تمرَّنتَ وتدرَّبتَ فستجد مشقة عظيمة إذا لم تَبْدأْ بقناعتك فتُغَيّرها، فمِرَان القناعة والعقل قبل مِرَانِ الجسم والقلب.

«ومتى رسخ الوهم في النفس يصعب انتزاعه على العقلاء الذين يتعاهدون أنفسهم بالتربية الحقيقية دائما، فكيف حال الغافلين عن أنفسهم، المنحدرين في تيار العادات والتقاليد الشائعة، لا يتفكرون في مصيرهم، ولا يشعرون في أي لجة يُقْذَفون؟»[1]



(١) تفسير المنار (٢/ ١٣١).



[الخاتمة]

هذا ما يسّر الله لي كتابته عن موضوع العقل والعقلاء، فإن كان صوابًا فمن الله وحده، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان أعاذنا الله منه.

وبعد أنْ انتهيت من تأليف الكتاب اطّلعتُ على عدة كتب غربية متخصصة بدراسة الدماغ، ويدور الحديث فيها حول العقل والعقلاء، فوجدت أنّ مفهومهم للعقل يختلف عن مفهوم المسلمين، فهم يرون أنّ العقل هو الدماغ، ويقتصر حديثهم على وظائفه وتركيبه، ويذكرون شيئا من التفكير الإيجابي.

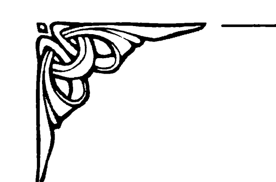
لكنهم لا يتحدثون عن العقل بالمفهوم الشرعي، بمعنى عقل وحبس الإنسان عن رذائل وسفائف الأمور.

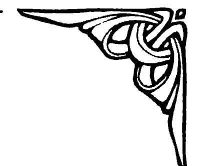
وفيما ذكرتُ كفايةٌ ـ إن شاء الله ـ لمن رام بلوغ الكمال في العقل، ومجاراة العقلاء، واللحاق بركبهم، فاجتهد ـ وفقك الله ـ في تنمية عقلك؛ لتكون في عداد العقلاء.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وقد فرغت منه يوم عيد الأضحى المبارك، عام ١٤٤٢هـ







الفهرس

الموضوع	الصفحة

طُبِعَ لِلْمُؤَلِّفِ

١ - حَيَاةُ السَّلَفِ بَيْنَ الْقَوْلِ والْعَمَلِ. (الطبعة الثالثة).
٢ - إِرْشَادُ السَّاجِدِ بأَسْبَابِ الخِلَافِ والتَّقاطُعِ في الْمَسَاجِدِ.
٣ - الْإِفَاضَةُ في أَحْكَامِ الْحَيْضِ والنِّفَاسِ والْاسْتِحَاضَةِ.
٤ - كَيْفَ تُرَبِّيْ أَولادَكَ؟ ثَلَاثُونَ قَاعِدَةً تُوصِلُكَ إلى أحْسَنِ وأَنْجَحِ الطُّرُقِ فِي التَّرْبِيَةِ. (الطبعة الثانية).
٥ - بُيُوتٌ تَئِنُّ مِنَ الْمَشاكِلِ والْخلافَاتِ، الأَسْبَابُ والْعِلَاجُ.
٦ - حُقُوقُ الصَّدِيْقِ وكَيْفَ تَتَعَامَلُ مَعَهُ.
٧ - آدابُ طالِبِ الْعِلْمِ وسُبُلُ بِنَائِه ورُسُوخِه.
٨ - الحياةُ الزّوجيّةُ السّعيْدَةُ، قَوَاعِدُ وَحُقُوقٌ وَعِلاجٌ لِلْمُنغّصاتِ.
٩ - عِلْمُ تَعْبِيرِ الرُّؤَى، بَحْثٌ تَأْصِيْلِيٌّ عِلْميٌّ تَطْبِيقِيٌّ.
١٠ - الْمَعِيْنُ الْجَارِي في اسْتنباطِ الفَوَائِدِ واللطَائِفِ مِنْ صَحِيْحِ الْبُخَارِي.
١١ - مَنْهَجُ الصَّحَابَةِ والسَّلَفِ الصَّالِحِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ فَتَاوَى الْمُفْتِينِ والرَّدِّ عَلَى الْمُخْطِئِين.
١٢ - تَهْذِيْبُ كِتَابِ الْمُوَافَقَاتِ لِلْإمَامِ الشَّاطِبِي، مَعَ التَّعْلِيقِ عَلَيْهِ.
١٣ - مَجالسُ شَهْرِ رَمَضَانَ.
١٤ - قِصَصِي مَعَ الْمُلْحِدِيْن والْمُشَكِّكِيْن والْمُوسْوِسِيْن، معَ بَيَانِ طُرُقِ إِقْنَاعِهِم وَهِدايَتِهم.
١٥ - الْمَسَائِلُ الْمُهِمَّةُ فِي التَّجْوِيدِ والْأَحْرُفِ السَّبْعَةِ.
١٦ - عِبَاراتٌ أَثَّرتْ عَلَيَّ وَغَيَّرتْ في حَيَاتِي.
١٧ - عَبْقريَّةُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ.
١٨ - بَوَّابَةُ الْخُشُوعِ فِي الصَّلَاةِ.
١٩ - صِناعَةُ طَالِبِ عِلْمٍ مَاهِرٍ. (الطبعة الثانية).
٢٠ - صِناعَةُ خَطِيبٍ مَاهِرٍ.
٢١ - الْأُنْسُ بِالله تَعَالَى.
٢٢ - تَقريبُ فَتَاوى ورسائل شَيْخِ الإِسْلامِ ابْنِ تَيْمِيَّةِ رَحِمَهُ اللهُ.
٢٣ - فنُّ التَّعَامُلِ واكْتِسَابِ الْأَخْلَاقِ.
٢٤ - الرُّقْيَةُ الشَّرْعِيَّة بين باعةِ الأوهام وأصلها الشرعيّ، قصص وعبر.
٢٥ - غِذَاءُ الْعُقُولِ وَصِفَاتُ الْعُقَلَاء.